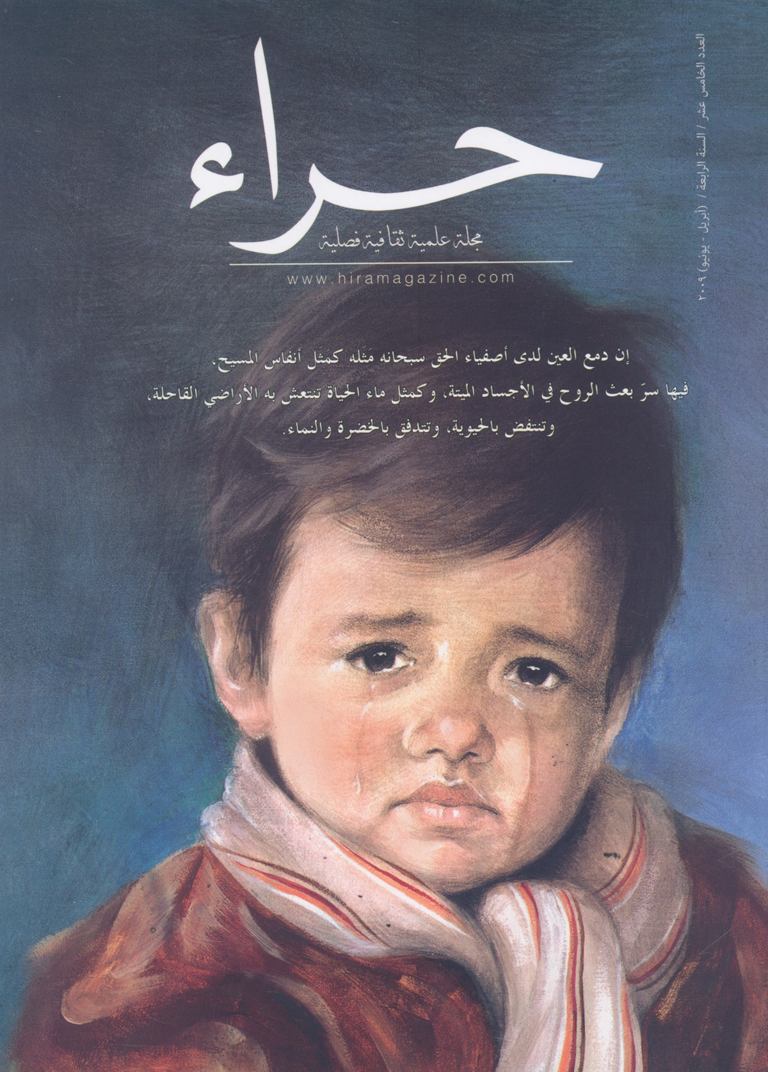

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
العدد الخامس عشر / السنة الرابعة / (أبريل - يونيو) ٢٠٠٩
إن دمع العين لدى أصفياء الحق سبحانه مَثَله كمَثَل أنفاس المسيح،
فيها سرّ بعث الروح في الأجساد الميتة، وكمثل ماء الحياة تنتعش به الأراضي القاحلة،
وتنتفض بالحيوية، وتتدفق بالخضرة والنماء.

بسم الله الرحمن الرحيم

حين يبكي الرجال..

هل يبكي الرجال؟ نعم، يبكي الرجال إذا ما آدتهم الأحزان وسحقتهم الآلام واعتصرتْ دموعَهم الفواجعُ والنوازل... ويبكي الرجال إذا شفّهم الوجد، وعلَتْ صراخات أرواحهم، وصدقت تضرعاتهم إلى الله تعالى في محاريبهم وصلواتهم... فهذا البكاء لا ينقص شيئاً من رجولة الرجال، ولا هو مما يعيب إذا كان صادقا طاهراً لا تشوبه شائبة رياء أو سمعة.

ومثل هذه الدموع تتفجّر عن فرط قوة حزينة في النفس ورحمة مزجاة في الضمير، وعن رهافة في الحس ورقة في الشعور.. فهي شديدة التأثر بالخطب اليسير، ناهيك عن الخطب الجسيم، فلا عجب إذا ما رأينا كاتب القلب الحزين والروح الجريح، الأستاذ "فتح الله كولن" وهو يفتح موسم الأحزان بمقال رئيس يعلن فيه أنْ لابد لأصحاب الرسالات الكبرى من مواسم بين وقت وآخر، يعودون فيها إلى نفوسهم، ويستخرجون من كوامنهم ما تراكم فيها من أحزان وآلام لمزيد من التطهر النفسي والروحي، فلا شيء يطهر النفس من خطاياها وأخطائها كما تطهرها الدموع والآلام.

ولا عجب كذلك إذا ما رأينا "حراء" في هذا العدد وقد أظلّتها سحابة حزينة، وغشيتها ظلال من كآبات بعض الأقلام. فعلى الرغم من التكريم الإلهي العظيم للإنسان كما يقول الدكتور "البوشيخي"، إلا أن هذا الإنسان يدير ظهره لله وينحدر غير آبه إلى أسفل دركات الانحطاط بوعي منه أو بغير وعي... وفي "روح الأمة" حزن آخر يغشانا ويملأ جوانحنا كما يجليه لنا الأستاذ "فتح الله" في قصيدة رائعة ترجمها إلى العربية مشكورا الأستاذ "نوزاد صواش".. أما "الإنسان بين الشيطان والقرآن" للأستاذ "أديب الدباغ"، فتصور مأساة الإنسان المعاصر الذي فقد قلبه وروحه وهو يحاول العثور عليهما.. وفي "الأقصى" مسجدنا الحزين لا زال للعثمانيين الأشاوس بصمات واضحات تشي بعمق الإيمان لديهم.. وعن الفروسية في الإسلام يحدثنا الدكتور "محمد عمارة" فإنها بحق صفحة من صفحات تاريخنا المؤثل المشرق، وإلى هذه الفروسية الأخلاقية يعزى ما نَعِمَ به معظم أطراف الكرة الأرضية من سلام وأمان إبان حضارة الإسلام.

فـ"السّلم في الإسلام" للدكتور "رمضان البوطي" وكأنه رديف ومتمم لمقال "الفروسية الإسلامية" فهو يتحدث عن هذا السلام مصدره وضماناته بشيء من الإسهاب... و"السنن الإلهية في المنظومة الكونية" للدكتور "علي جمعة" إشارة إلى سنن التوافق الكوني والتعاون والتساند بين أجزاء الكون وكلياته... وعن الحوار بين الحضارات يكتب الدكتور "أحمد عبادي" مبيناً أهمية "الوحي" في حياتنا الفكرية والوجدانية وضرورة العودة إلى "الوحي" واستمدادنا منه، فهو يمنحنا من القوة والثقة ما نستطيع معهما خوض التحديات التي تواجهنا دون خوف أو وجل.. ■



العدد الخامس عشر – السنة الرابعة (أبريل – يونيو) ٢٠٠٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

دار الجمهورية للصحافة





EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Sa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +2016552308

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocc
Tel: +212 22 24 92 00

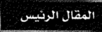
YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920



هذا موسم البكاء

❁ فتح الله گولن ❁

"ذهني" من صروف الدهر يبكي،
البستانُ يبكي... والبستاني...
صوّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمه،
مُذ هجر البلبلُ الوَلهانُ روضته... (ذهني)

عندما تجيش بعض العواطف في أعماق القلب من حزن وأسى، وفرح وسرور، ورحمة ورأفة، وتهيج فتغدو سُحبا متراكمة؛ فإنها لا تلبث أن تنهمر بوابل من الدمع عبر العيون. فالآلام والهموم، والفراق والوصال والحب والأشواق، والآمال والتطلعات.. جميعها تثير شَجَنَ البكاء عند أولي المشاعر المرهَفة ممن سعدوا بمحبة الرفيق الأعلى في رياض القلب وآفاقه، وتستدرّ دموعهم، ولكن ما من شعور تجود له عيونهم بغزير دمعها كمثل الشعور بالخوف من الله ومهابته، وإجلاله وتوقيره. أما الدموع الأخرى، فهي تنحدر من ماهية الإنسان الجامعة لجانبي الجسد والروح؛ فهي طبْعية، شائعة، لا تَمُتّ إلى أنّات الضمير وأشجانه بصلة، ولا تبلغ مرتبةَ الدمع السامي أبدا.

دموع السعداء

فإذا كنت تروم دموعا انبثقت من أرض الإيمان والعرفان، وهاجها الحبُّ والوجد والشوق، فهذا يقتضي معرفة بالحق جل وعلا، وإحساسا به عند كل كائن، وتشوُّقا لوصالٍ بمجهولِ الأوان ليلا ونهارا، ووَجَلا من مخافته وارتعادا من مهابته، وتخشُّعا عميقا بين يدي حضرته العلية. وهذا اللون من الدموع نادر عزيز، لم يحظَ بمثله إلا ثلة من السعداء.. كما أن استمراره منوط بأن تقرأ آثاره تعالى في كل شيء، وتحس به في كل شيء، وتبحث عنه في كل شيء، وتعرفه لدى كل شيء، ويذكره لسانُك عند كل شيء.

إن المرء إذا عرف شيئا تعلّق به.. فإذا ازداد التعلق انقلب حبّاً ثم وجداً وولَعاً يسلب فؤادَه، ويأخذ بمجامع قلبه. وإنّ عاشقا في مثل هذه الحال لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال، يتيه من صحراء إلى أخرى، يئنّ ويبكي على "ليلاه". فهو في عمل دؤوب وتعبئة لا تني لكي يتسامى على حالة "البعد" التي تخيم عليه.. ومن ثم يتتبع الآثار التي تتحدث عنه سبحانه، ويتدبر العلامات دون سآمة أو إعياء، يناجي كتاب الكون حينا، ويحنو على الأشياء والأحداث حينا آخر، يقرؤها على أنها رسائله جلّ وعلا، يتنسم

أريجهـــا، ويكحل عينيه بجمالها.. وفي أحيـــان أخرى يخفق قلبه لسماع عبارة من بيانه العجيب فيروّح عن قلبه ببعض العَبَرات، وأخيرا يقف عند إيماءات تشـــير إليه ودلاّلين يَدعون إليه، متأملا فيها مستغرقا في معانيها، موصولا بدقيق أسرارها بوجد عميق، متنسما نسمات الحب في كل لحظة وحين.

هذه حال السعداء الذين يسعون متلمسين يد الصانع في صنعته العجيبة، منتبهين إلى الجميل المتعالي في كل بديعة من بدائع الحسن والجمال، مرهفين أسماعهم بدقة متناهية إلى كل همسة من همسات الكون التي تحدثهم عنه، عاطفين على كل كائن في الوجود بحب عميق وعناية فائقة لأنه من صنعه وأثره سبحانه، ومن ثم ناسجين كل فقرة من قصيدة حياتهم على لُحمة العشـــق وسَدَى الحب.

هذا، وإن من طبيعة القلوب أن يهيّجها الحزن، ومن شـــأن العيون أن تفيض بالدمع لـــدى مفارقة الأحبة أو وصالهم.. غير أن منـــزلة الدموع في عالم الغيوب تقدّر بحســـب عمق المشاعر، واتســـاع التصورات، وسموّ النوايا التي يحملها صاحب النحيب والأنين. فإن من يذرف الدمع ويئن بلواعج قلبه خشـــية وتخشّعا ومراقبة وتبصّرا؛ أو من يكظم أمواج العواطف المتلاطمة في قلبه، ويخفي غلَيان المشاعر المتأججة في ضميره، فيدفنها في غَور أعماقه مقتفيا أثر القائل:

إذا ألَمّ بـــك الهمّ، فحذارِ من التـــأوّه حذارِ،
أُكتمْ آهاتك في صدرك، ولا تُفشِها للأغيار..

أجل، إن هؤلاء أرقّاءُ بابِ الحبيـــب بصدق، كَحِيلُو الطّرْف[1] والأجفان، أوفياء له بحقّ، يصونون سرّهم كما يصونون عِرضهم، ويغارون عليه ولوْ مـــن عيونهم. وإن حال هؤلاء تعبر عن معان عميقة دوما، سواء أجهشوا بالبكاء أو لاذوا بصمت طويل.

وبالمقابل فـــإن التباكي الذي لا ينبعث مـــن صميم القلب عـــذاب للعيون وإهانة للدموع وخديعـــة للناس كافة. ومن هنا فإن تصنّع البكاء لا يُفرح إلا إبليس، بل ويلوّث إكســـيرا عجيبا صنعه الخالق ليطفئ نيران جهنم، ويُبطِلُ مفعولَه الخارق بما يحمل من آفة الرياء. إن الدموع التي تنم عن الاعتراض والإنكار وعدم الرضا في أوقات المصيبة والبلاء محرّمة ألبتة، وإن الارتعاد بهواجس القلق والاضطراب مما يخفيه المستقبل، ما هو إلا لوثة نفسية وداء عُضال؛ كما أن التلهف والشكوى على ما ضاع في الماضي عبث في عبث وهدر للدموع.

لقد ذرفـــت عينا يعقوب عليه السلام دموعا ســـاخنة على ولديه العزيزين بدافـــع من حنين الوالد إلى فِلْـــذتَيْ كبده، وبدافع من عاطفةٍ شفقةٍ ارتعش لها قلبه. ولعل النبي الكريم عليه السلام قد سكب غزير الدمع عليهما لما توســـم فيهما من أمارات الأمل المشرق في المســـتقبل، ولما عَرف لهما من مكانة سامية لدى الباري جل جلاله. فإذا صح هذا التفســـير -ونحن نؤمن بصحته- فلا حرج في هذا اللون من البكاء. أما الدموع الزائفة التي انحدرت من عيون إخوة يوســـف عليه السلام عند والدهم الكريم، فما هـــي إلا كذبة فاضحة وخديعة مشـــينة واجههم بها ســـيدنا يوسف حينما كتب الله له لُقياهـــم قائلا: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فحمدوا له صنيعه قائلين: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾.

إن قطـــرات الدمع التي تنهمر لوجـــه الله جل جلاله، هي أصدق أنات القلب الذي يمور بالحب الإلهـــي مورا. وإنّ من تأججت أضلاعـــه بنيران الوجد تلألأت عينـــاه بالدموع، أما من أقفرت عيناه وتصحرت فلا أثر للحياة في جوانحه.

نبي الأحزان ﷺ

إن الحزن والبكاء من أبرز الخصال التي اتســـم بها الأنبياء الكرام، فقد كان لآدم عليه السلام أنين متصل مدى الحياة، وها هي دموع نوح عليه السلام قد تحولت إلى طوفان غمر ســـطح الأرض. أما مفخرة بني الإنسان عليه أفضل الصلاة والســـلام فقد نظم قصيدة لواعجه وأحزانه بالدموع، ولذلك فلعلنا لا نخطئ إذا سميناه "نبيّ الدموع والأحزان". ألا تذكر يـــوم بكى بحرقة حتى الصباح تاليا الآيتين الكريمتين مرة بعد أخـــرى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة:١١٨)، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّـــهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(إبراهيم:٣٦). فلما أخبر جبريلُ عليه السلام ربَّ العزة جل جلاله بسبب بكائه -وهو أعلم- زفّ إليه بشـــرى أثلجت صدره، وسكّنت خفقـــان قلبه وأنين وجدانه: "يا جبريل، اذهب إلى محمد وقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك". (صحيح مسلم).

لقـــد كان دائم الفكرة متواصل الأحـــزان (الترمذي)، إذ كان في كثير من الأوقات يســـتغرق في تأملاته التي تنتهي إلى دموع حارّة تتحدر على خديه المباركين. صحيح أن وجهه الحزين كان يشـــرق فرحا حينما تصله بعض البشائر، إلا أنه كان في أغلب الأحيان يبكي ويئن أنـــين البلبل الجريح. إن البلبل لا ينقطع عن النواح والأنين حتى وإن حـــطّ على الورد، فكأنه قد خلق لكي

يصدح بنغمات الهم الدفين والحزن المتصل. أما الغربان فلا يحمل نعيقها أدنى معنى من ذلك الهم والحزن، وأما نعيب البوم فهو أبعد ما يكون عن مثل هذه المعاني النبيلة.

أنين الأصفياء

إن الحزن والبكاء حال الأصفياء دائما، وإن أنين الليل والنهار أقصر طريق إلى الله سبحانه. ومن عاب العاشق في بكائه فقد فضح نفسه وأبان عن رعونته. ومن لم يفهم حقيقة النفوس التي احترقت وجدا وتأججت شوقا، فسوف يصبح متقلبا بالحسرات ويمسي مكتويا بآلام البعد والهجران يوم يقوم الناس أمام رب العباد.

وإن القرآن الحكيم لَيلفت الأنظار باستمرار إلى أصحاب القلوب المضطرمة والعيون الملتهبة مُشيدا بذكرهم نماذجَ مثالية يجدر التأسي بها وتمثّل سلوكها. فهو ينوه بهؤلاء الربانيين أنقياء الروح أصفياء القلب يقِظي الفؤاد، ويثني على الدموع التي انحدرت من أعينهم، خوفا من جلال الله، وهيبة من جبروته، أو شعورا بثقل الذنوب وتعاظمها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسراء:١٠٧-١٠٩)، فيعد الدموع التي تقاطرت حبا لله هدية صدقٍ قدّمت بين يدي نجواه سبحانه.

وكذلك حينما يثني على الأنبياء واحدا تلو الآخر بميزاتهم التي تميزوا بها، ومحامدهم التي تفردوا بها، ينبه إلى الجامع المشترك بينهم، أي البكاء والأنين، إذ يقول: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم:٥٨). وتأكيدا لمكانة الدموع لدى الباري ﷻ نقرأ في الكتاب المبين آية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٨٣)، وذلك في معرض تبجيل المؤمنين قديما والموقنين حديثا ممن استيقظوا على النور من خلال الكتب المنزلة والرسالات السابقة، ثم التقوا بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، فسمعوا منه رسالة السماء غضة طرية، فتقلبوا في أحضان الإيمان من حال إلى حال.

وها هو القرآن مرة أخرى يشيد بأبطال الدموع، يهدّئ من روعهم، ويعزّي قلوبهم المنكسرة، ويخفف من وطأة أحزانهم بثناء سماوي، إذ لم يجدوا العدّة المطلوبة التي تساعدهم على الجهاد في سبيل الله بسبب ضيق ذات اليد فيقول: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(التوبة:٩٢). وبينما يذكّر القرآن بأن البكاء من سمات الربانيين التي لا تفارقهم، يحذر هؤلاء الطائشين الذين يعدّون الحياة لعبا ولهوا فيقضون أعمارهم ضاحكين عابثين قائلا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(التوبة:٨٢)، وبالتالي فإنه ينوه بمكانة الدموع من باب آخر. أجل، إن القرآن يستميل أنظارنا إلى الحقيقة نفسها بأساليب شتى وبعشرات من الآيات، ويرشدنا إلى أن نقف موقفا يليق بمكانتنا الكونية.

هذه تنبيهات القرآن الملحة في هذا الشأن، وإليك نفحات من الحياة السنيّة للنفس الزكية والروح الطاهرة مبلّغ وحي السماء عليه الصلاة والسلام الذي سارت حياته مستقيمة على هذا النهج القويم؛

فقد كان يقول لأصحابه الأوفياء من حين إلى آخر "طوبى لمن مَلَكَ نفسَه، ووسِعه بيتُه، وبكى على خطيئته" (الطبراني)، فيدلّهم على معراج ذي ثلاثة مدارج يستدرجهم من خلالها إلى الآفاق السامية التي يعيش فيها، ثم يلفت أنظارهم إلى ما يقع في عوالم الغيب من شؤون جسيمة تهز القلب هزا فيقول: "واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" (البخاري).

كما كان يوقظهم دوما إلى أهمية البكاء والأنين، وينبههم -وينبهنا معهم- إلى أن قطرات الدمع النقية التي فاضت خشية من الله تشكل حجابا إزاء عذاب النار ما لم تتلوث بزيف الرياء وكذبه، "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله" (الترمذي). وتأكيدا للمعنى نفسه وتنويها بقيمة الدمع لدى الحق تعالى كان يستخدم أساليب مختلفة في حديثه إذ يقول: "لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللّبنُ في الضَّرْعِ" (الترمذي).

فما بالك إذا انسكبت هذه الدموع، وتعالت تلك الآهات في خلوات محجوبة عن العباد مكشوفة على رب العباد.. الحقيقة أنني لا أعرف ميزانا يستطيع أن يزن قدرها. أجل، كان نبيّ الحزن ﷺ يصدح بهذه المعاني وينبه إليها حيثما نزل وأينما حلّ، مع العلم بأنه لم يتخلف عما أشاد به من مُثل عليا قطّ، ولم يبطئ السير نحو الآفاق البعيدة التي أشار إليها أبدا، بل كان متجاوزا لها بمسافات شاسعة، فعندما كان يقوم أمام الباري ﷻ للصلاة يُسمَع في صدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء (أبو داود). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ "اقرأ عليّ"، قلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال

"نعم". فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾، قال "حسبُكَ الآن"، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان (البخاري).

أجل، كانت الدموع تسيل من عينيه سيلا، فهل كان أصحابه الأنقياء الأطهار يشهدون دموعه وهم واجمون؟ كلا، بل كانوا يجهشون معه بالبكاء، فيتحول المشهد إلى بكّائين يتغنون بأناشيد البكاء ويترنمون بأنات الدموع. وذات مرة ما إن تلا عليهم قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ﴾(النجم:٦٠-٦١) حتى علت أصواتهم بالبكاء وارتجّت السماء بالأنين، فلما رأى رسول الله ﷺ بكاءهم طفق يبكي معهم بدموع حرّى، فما كان ذلك إلا أن أثار شجونهم ولمس شغاف قلوبهم فطفقوا يذرفون دموعا أكثر من ذي قبل (البيهقي). فقد كان بكاء الليل وأنين النهار دأبهم؛ إذ كانوا يشعرون بحلاوة الإيمان ولذة العرفان فيبكون، وتثور نيران الحب والشوق لديهم فينتحبون، ويراقبون عملهم فيحذرون من أن يكون قد خالطه شيء من الذنب فيستعبرون، وتلوح لهم مشاهد الآخرة فيرتعشون خوفا ويئنون، وتغطي الغيوم آفاقهم فتحجبهم عن الرؤية فيضطربون، ويعاودون الكرّة فيبكون.. تلك حالهم ما بين بكاء وأنين يُزْجَى بأخلص عبارات التضرع والابتهال إلى عرش الرحمن.

إن أسرع الأدعية وصولا إلى الله ما صدر منها مصحوبا بدمع العين وأنين القلب، إذ ما من شيء يمكن أن يترجم حرقة الفؤاد ولوعة الضمير بأقصى سرعة وأسمى نقاء مثل العَبَرات والدموع. وما رَفعت دموعُ القلب رايتها في ساحة من الساحات إلا تبددت جيوش الإثم أمامها مقهورة مخذولة. وإن النفوس المرهفة حينما تحس بهذا النوع من نسمات القبول تلامس أوتارها، تهدأ ثورة نيرانها، وتنتشي بلحظات من البرد والسكينة والسلام.

إن الأوّاهين الذين عاشوا في بكاء وأنين متصل هم بلابل الحب الصادق عند أهل السماء. فإذا انطلقت أصواتهم بالتغريد أنصت سكان الملإ الأعلى، وراحوا يصغون إلى ترانيمهم بسكون عميق. فإذا بلغ البكاء هذا المبلغ من الوفاء والنقاء، وكان ترجمة صادقة لما يمور ويهدر من شلالات في القلب، فعلى المرء أن يوجهه ناحية "الأبد"، ويقدمه إلى "سلطان الأبد" في منتهى السرّية والكتمان، وأن يحذر من تلويثه بشائبة الرياء، وإلا تحول ذلك الشلال المطفئ للنيران إلى سم زُعاف.

إكسير الدموع

إننا نعيش في عالم فَقَد النورَ الذي يهتدي به، فادلهمّت الأرض وأظلمت السماء، وخيمت الفوضى على كل مكان... هلمّ بنا إذاً، نَذُبْ ذوَبانَ الشمعة الملتهبة ونحنِ رؤوسنا انحناءها وهي تشتعل وتذوب، ونتأمل مئات الذنوب وآلاف المعاصي التي اقترفتها أيدينا، ثم نطلق أناتنا كالبلابل المفجوعة حتى ينتفض أهل السماء يلحَظون، فيهبّوا مسرعين يحملون مشاعل النور في أيديهم لكي يشهدوا مهرجان البكاء العظيم. إني أرى أن هذه الفترة التي شبّت فيها ألسنة النار في الهشيم، لَهِي أنسب الأوقات لكي نُفتّق سحائب عيوننا بشلالات من الدموع. وإذا كان دمع العين إكسيرا عجيبا يبطل سحر كل مؤامرة شيطانية -وهو كذلك- فما علينا إلا أن نتخلى عن مشاهد الابتهاج الفجة حيثما حللنا وارتحلنا، ونلجأ إلى الاسترواح بغيوث البكاء، ونسعى إلى إخماد نيران الأنين بإكسير الدموع.

إن أسرع الأدعية وصولا إلى الله ما صدر منها مصحوبا بدمع العين وأنين القلب، إذ ما من شيء يمكن أن يترجم حرقة الفؤاد ولوعة الضمير بأقصى سرعة وأسمى نقاء مثل العَبَرات والدموع.

إن دمع العين لدى أصفياء الحق سبحانه مَثَله كمَثَل أنفاس المسيح عليه السلام فيها سرّ بعث الروح في الأجساد الميتة، وكمثل ماء الحياة تنتعش به الأراضي القاحلة، وتنتفض بالحيوية، وتتدفق بالخضرة والنماء. وإن السعداء الذين أووا إلى خلوات الليل المحجوبة عن العباد المكشوفة على رب العباد، فزادوها عمقا ببكائهم، وشفافية ورقة بنحيبهم، وأسمعوا مكامن أرواحهم ترانيم من الأنين ونغمات من الحنين، سوف يُمنَحون سر البعث حتما، إنِ اليومَ أو غدا، ويبثون الروح والحياة أينما نزلوا وحيثما ساروا. منذ سنين وسجاداتُ الصلاة ظمأى إلى الارتواء بأنداء

الدمـــوع.. ومنذ عقود وآذاننا متشـــوّقة إلى أنـــين القلوب.. اكفهرّت سماؤنا وتصحرت أوديتنا.. بتنا لا نشعر بلهيب النيران التي تضطرم في أحشـــاء أهل المكابدة فينا.. فكأن وجوهنا قطع من الجليد، وأنظارنا خِلْوٌ من أي معنى نبيل.. لا أثر للهمّ المضني والمعاناة المبرّحـــة في الأفئدة.. ونظراتنا لا تعبر عن الصدق الذي يبعث الإيمان في القلوب. وإنه لمـــن المحال بمكان أن ننطلق نحو المستقبل، وأن يكون لنا وزن في لاحقِ الأيام بهذا العبء من الغفلة.

ومنذ أن أحجمت عيوننا عن الدموع، جفّت ينابيع الســـماء من خيراتها، وأمســـكت أنـــوار التجليات وغيـــوثُ الإلهام عن الهطول.. فلا ورد ينبت ولا زهـــر.. وباتت الأنوار تنحدر من السماء متعثرة، والنسيم يهب بين الحين والآخر منهَكا.. سكان السماء لَهْفى إلى أنّات أهل الأرض ونحيبهم.. والرحمة التي تريد أن تتحول إلى سحائبِ بُشْرى، تستغيث الأجفانَ دموعَها. كما بكى "ذهني" قائلا:

كأنّ رياضَ الورد اشـــتعلتْ فيهـــا النيرانْ،
واســـتلبتْ الحيّةُ الســـوداء عرشَ سليمانْ،
واستعرتْ بالأنين حتى ذابت أحشاءُ العاشقينْ،
وتحولتْ أيام الوصال إلى غـــمّ وهجرانْ...

ومن يدري، فلعل الأرواح الطاهرة التي ترفرف في الســـماء، تترقب تدفق الدموع من عيوننا لكي تناجي الغيوم وتستحثها على الهطول. ومن يدري، فلعل عيوننا تفيض بحارا من الدموع إزاء ما ألمّ بنا من نوازل ومهمّات، فتمتلئ للتوّ آفاق الملكوت بسحائب محمّلة بالرحمة الواســـعة، وتنتبه السحائب إلى أخطائنا ومعاصينا تجرفها أمواج الدمع المتدفقة من أجفاننا، فإذا بها تهلل فرحا، وتتألق ابتهاجا، وتغني أناشيد الربيع، ثم تنهمر علينا بالرحمة والبركات.

ومن يدري، فلعل سكان الســـماء، شأنهم في ذلك كشأننا حينمـــا نأخذ ماء الورد فنضمّخ بـــه وجوهنا وعيوننا في ذكرى الميلاد النبوي الســـعيد.. من يدري؟ فلعلهم يســـتبقون قطرات الدمع التي تســـتروِح بها النفوسُ الملتهبة بالهجران، يمســـحون بها وجوههـــم، ويكحلون بها عيونهم، ويضمونها إلى صدروهم على أنها أعز هديـــة قدمت إليهم. إن أخطاءنـــا وذنوبنا قد طاولت الجبال في تعاظمها.. وإنّ حالة الأســـف ودموع الندم التي تبدو علينا أحيانا، يغلب عليها غُلْواء الرياء والسمعة.. فلا أثر للمعاناة المؤرّقة في نفوســـنا.. وأغلب بكاءاتنا ذات طابع دنيوي ومشوبة بالعصيان. ومن ثم فنحن لا نحتاج اليوم إلى شـــيء قدر احتياجنا إلى دموع من الندم تُذرَف لِتنقّينا من الأدران التي علقت بنفوسنا منذ قرون. فعســـى أن نطرق باب التوبة بها، ونعود لنبني سنواتنا البائدة من جديد.

إن آدم عليه السلام لمـــا ضخّم "عثرته" في عينيه وكبّرها حتى بلغت ضخامة قمة "إفيرســـت"، لم يلجـــأ إلا إلى الدموع لكي يذيبها ويدمّرها عن بكرة أبيها. لقد كان مثل شـــجرة "العود" تحترق رويدا رويدا لتغمر المكان رائحة شذية، إذ لم يلبث أن اضطرمت النيران في أحشـــائه، فراح ينتحب بدموع حرّى، ويتلوّى بأنّات الندامة حتى ارتقى إلى سماء القبـــول، وصار محط أنظار الملائكة والملإ الأعلى. وعندما انقشعت الغمة وانتهت "المكابدة"، أصبح كل يوم جديد يشرق عليه بأبهى بشائر العفو وأزهى تهاني الغفران.

بعـــد أن اجترحت أيدينا ما اجترحـــت من الآثام، وبعد أن عانينا ما عانينا من الجفوة والحرمان، أرى أنه لا يبدو لنا ســـوى مخرج واحد؛ وهو أن نترصد شـــواطئ الخلـــوات المتفتحة على التجليات، ونسبل ستائر الليالي السوداء على رؤوسنا، ثم نخرّ على جباهنا ساجدين منتحبين، لا يرانا أحد ولا يسمعنا سوى السميع البصير. تعالوا بنا نبكِ ونتلهف على نقضنا لعهدنا، وانهدام وفائنا، وعجزنا المتصل عن إخلاص أعمالنا، وشرودنا ذات اليمين وذات الشمال أثناء سلوكنا، والتواء خطنا، وانحراف استقامتنا، وعدم توفيتنا حقَّ المقام الذي بوّأنا الباري جل جلاله، وحقَّ المكانة التي تَوّجَنا بها، وعدم وقوفنا موقفا مشـــرّفا قويا يوازي المنن والأيادي التي كُرِّمنا بها.. أجل، دعونا نبكِ أيضا على كل من أســـاء التصرف مثلنا.. بكاء لم يشـــهد بمثله الأولـــون والآخرون، حتى يعجب أهل الســـماء الذين كان البكاء ديدنهم، فيسكبوا دموعهم إغاثة لدموعنا، ويرفعوا أنينهم استجابة لأنيننا منذ اليوم.

أجل، نحن لم نَقدُر المكانة السامية التي كُرّمنا بها حقّ قدرها، ولم نصمـــد في مواقعنا بعزم صادق ووعي نافذ وإخلاص عميق. لقد انحلّت الأيدي المتماســـكة، وهجر الحبيب ديارنا، وعصفت رياح الخريف برياض الورود فأبادتها، واكتوت أحشـــاء البلابل بلهيب الفاجعة، وأخذت تشـــدو بآهات محرقة، وتبكي بأنات ملتاعة... أجل، غاضت الينابيع، وجفت الجداول، وباتت الأشواك تنـــذر بالهول في كل مكان، ونعيب البـــوم يمزق أرجاء الأرض والســـماء. آنَ الأوان لكي نتحدث بلسان قلوبنا، ونشر قطرات

من إكسير الدمع على وحشتنا وغربتنا، فننهي عهد التصحر المميت.

لقد منّ الله علينا بألطاف جليلة مثل الوجود والحياة والحس والشعور والإدراك.. ورسم لنا آفاقا ومسالك للحياة تتناسب مع ما جهّزنا به من مواهب وطاقات. بيد أننا بددنا كل شيء وأسرفنا في ذلك إرضاء لأهوائنا الطائشة ورغباتنا الجامحة، فأخذنا نتدحرج القهقرى، ونتراجع عن المرتقى الذي شُرِّفنا به، ونهوي إلى قاع النزوات، وإذا بنا ننحطّ بالمستوى الإنساني الرفيع، ونلوّث الكرامة الإنسانية، ونلوّث أنفسنا معها. بعد هذا المنحدر السحيق، ألا ينبغي على الأقل، أن نبذل الغالي والنفيس لكي نمضي قُدُما فيما تبقّى من أعمارنا على خط القلب الذي لا ينحرف ولا يحيد؟!

مناشدة حرّى

إذن، تعالوا نَهجُرْ أيام البؤس التي قضيناها ضاحكين عابثين، تعالوا نعزف على أوتار الدموع مترنمين بنغمات البكاء والأنين. هلُمّوا نودّع حياة اللهو والهوى، ونتدثر بدثار الهمّ والمعاناة حتى نكتشف أبعادا أخرى من الحياة ونستشعر بها في أعماقنا. تعالوا نصغِ إلى ألوان من الهموم، ونستهدِ السبل التي تقرّبنا إلى عظماء المكابدة ممن يقاسمون الأوّاهين آلامهم ويشاطرونهم أحزانهم.

لقد اندثرت أيام عمرنا الخصيبة في ضياع مخيف، وولّى ربيع الحياة دونما رجعة. وباتت طلائع الليل البهيم تلوح في الأفق الغربي تنذر بانتهاء نهار العمر الوضيء. فلم يبق لنا -والحال هذا- إلا أن نوقد مصباحا ساطعا لا يخمد نوره استعدادا لذلك الليل الطويل. فلا أقلّ من أن ننتفض -منذ الساعة- فنؤوب إلى رشدنا، ونلملم شعثنا، ونعود إلى جوهرنا، فنرطّب حرقة أكبادنا بقطرات من دموعنا.. إذ لم يقطر على وجه الأرض شيء أعزّ وأكرم من الدمع عند الخالق ﷻ، وإنّ تلك القطرات التي تناثرت على وجه التراب ستحوّل أرجاء البسيطة كلها إلى جنّات زاهرة في عهدٍ ليس ببعيد.

ناشدتكم الله أن نهبّ معا لنكون سقّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلة من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدم للرائح والغادي فواكه غضّة طريّة نضيرة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان. ■

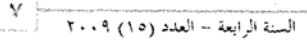
(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

(1) كحيلو الطرف في الأدبيات التركية: الأصفياء أصحاب القرب الإلهي الذين حباهم الله بحدّة البصر ونفاذ البصيرة. (المترجم)

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

أمداد الرحمن..!

على أرائك الراحةِ لا تَجلس،
وفي الظلال عن حرّ الشمس لا تستتر...
شمّرْ عن ساعِدَي روحك،
واستنهضْ قوى كيانك...
فإنْ أنت على جمرات التعب مشيتَ،
وعرَقًا غزيرًا عن جبينك مسحتَ،
وبذرًا في الأرض القاحلة بذرتَ،
وصبرتَ وانتظرت...
جاءك المدد، وتنزلتْ قوى السماء،
ويدًا بيد عملتْ معك لتخضرّ أرضُك،
ويقومَ ميّتُك،
ويُرْحَمَ مُعَذَّبُك، ويَأمَلَ يائِسُك..!
* * *



مظاهر التكريم الإلهي
لبني الإنسان

أ.د. الشاهد البوشيخي*

الحديث عن تكريم القرآن للإنسان هو حديث عن موقع الإنسان في هذا الكون، وعن أصل الإنسان، وعن منهج تكريم الإنســان. الحديث عن تكريم الله ﷻ حديــث عن ربنا الكريم وكيف أفاض من كرمه على هذا الإنســان فجعله مكرما، مكرم الأصل، ومكرم الفرع، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُــمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسـراء:٧٠). الكرم جماع الخير كله، فالكرم ليس هو الجود كما هو شائع، ولكنه ضد اللؤم. الكرم جماع الصفات الحميدة كلها، والكريم هو المتصف بتلك المحامد اتصافا يجعلها ظاهرة فيه ظهورا جليا، هكذا يحدد أهل اللغة الكرم. فهو ضد اللئيم، وليس ضد البخيل كما هو شــائع؛ وإكرام الله ﷻ لعباده من الملائكة أو من الناس هو إنعام عظيم من وجوه لا عدّ لها ولا حصر على هذه الكائنات.

والتكريم جعل الشيء المكرم كريما في ذاته ليس منعما عليه إنعاما عاما بصفة من الصفات أو بمجموع من الصفات، ولكنه جعله في حد ذاته كريما أي نفيسا. فكل شيء شُرف في بابه فقد كُرم، والتكريم جعل الشيء كريما فعلا، والله ﷻ حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ خاطب "الإنســانية" بتعبير اليوم، و"بني آدم" بتعبير القرآن، فأفاد أمرين: أفاد تكريما لهؤلاء الذين تناسلوا من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، ذكورا كانوا أم إناثا، وأفاد أن من تكريمهم أيضا أنهم قد تناسلوا من آدم، وآدم قد كرم قبل في الانطلاق، في انطلاق الإنسانية منه، وذلك ما جاء على لســان إبليس نعوذ بالله منه حين قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسـراء:٦٢)، ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ إشارة إلى آدم عليه السلام حين أمر الله ﷻ الملائكة أن يســجدوا له. فآدم بنص هذه الآية قد كرم أيضا، وبنص الآية الثانية كُرمت ذريته، ومن تكريم ذريته إشــعارهم وتذكيرهم بأنهم أبناء آدم. فما هي مظاهر تكريم آدم عليه السلام؟

مظاهر التكريم الإلهي لآدم عليه السلام

آدم عليه السلام قال الله ﷻ فيه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(ص:٧٥)، فأول تكــريم لآدم أن خلقــه الله بيده، وهذا فيه تنبيه على أن هــذا الخلق ليس خلقا عاديا مــن قبيل "كن فيكون"، ولكنه خلق له خصوصية، هي أن الله باشــره بيده، فهذا تنويه بنفاســة هذا الإنســان وهذا المخلوق، ثم إنه ﷻ بعد ذلــك قال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَــانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَــوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾(الانفطار:٦-٧)، ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١- ٧٢). هذه التســوية ترشد إليها آية أخرى بعبارة أخرى توضح معنى هذه التسوية حين يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤). هذه هي التسوية والتعديل الأول، والتســوية والتعديل اللاحق في كل مخلوق، أن يفطــر الناس جميعا على الفطرة

الأولى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣٠)، هذه التسوية أيضا مظهر من مظاهر التكريم لآدم عليه السلام.

ثم بعد ذلك الله عز وجل نفخ في هذا المخلوق من روحه ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧٢). ففي هذا الإنسان في الأصل الأول شيء من روح الله عز وجل، به سيصلح بعد لتلقي هذه المهمة الكبيرة التي أنيطت بالإنسان، مهمة الخلافة، به سيصلح بعد أن يكون عابدا لله عز وجل، به سيصلح بعد لتلقي الهدى النازل من عند الله عز وجل، الذي هو أيضا من جنس ما نفخ في آدم عليه السلام، أي إنه أيضا من روح الله كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). فهذا القرآن وكل الهدى النازل من عند الله عز وجل، هو من جنس ما نفخ في آدم عليه السلام؛ وبهذا النازل يقع الالتحام مع هذا القسم في الإنسان، فيكرم الإنسان ويشرف ويسمو. إذ هذا النفخ من روح الله عز وجل فيه هو من مظاهر تكريم آدم عليه السلام.

ثم أمر الله عز وجل ملائكته -وهم عباد مكرمون- بأن يسجدوا لآدم عليه السلام، وهذا أيضا مظهر من مظاهر تكريم هذا المخلوق، وفيه إشعار بأن جميع هؤلاء الملائكة -وهم جنود مجندون للقيام بوظائف لا عد لها ولا حصر في ملك الله- سيخدمون هذا الكون الذي هو أيضا خادم لهذا الإنسان، ليعبد الله عز وجل.

ثم هذا التعليم للأسماء كلها وهو مناط الخلافة، فالملائكة حين أخبرهم الله عز وجل قبل خلق آدم بأنه جاعل في الأرض خليفة قالوا مستغربين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣٠-٣٣). فهذا التعليم لآدم هو محض موهبة وفضل من الله عز وجل منّ به على أبينا الأول آدم عليه السلام الذي هو أصل الإنسانية ذكورا وإناثا، ثم من بعده كان إشعار بهاته النعمة نفسها على آخر صفوة خلقه كذلك محمد ﷺ حين قال له: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٣-٥)، هذا جاء بعد صفة الأكرم نفسها التي منها صدر التكريم لهذا الإنسان. ومظهر هذا التكريم الأول هنا هو تعليم الإنسان ما لم يعلم، وهذا التعليم هو الذي ميز الله به آدم عليه السلام عن ما سواه بأن أودع فيه القابلية للتعلم، وهذا يعني منة أخرى أنه جعل له فؤادا أو قلبا أو عقلا يستقبل به هاته المعلومات ويحصل له به التعلم، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(الملك:٢٣)، هاته المصادر التي تدخل المعلومات إلى هذا القلب وهذا العقل الذي يستقبل، به تعلم هذا الإنسان وبه حصلت له منة أخرى.

حرية الاختيار

ومظهر آخر من مظاهر التكريم هو أنه مُنح الحرية والاختيار، ومعهما تكون -طبعا- المسؤولية؛ وهذا أيضا بالنسبة لآدم أيضا في اللحظة الأولى حين قال له ولزوجه: ﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾(الأعراف:١٩) هذا أمر، وهذا نهي: لكما الحرية كل الحرية ولكما الاختيار التام بأن تفعلا هذا أو هذا، لكن إذا حدث هذا فلا إشكال ولكما الأجر؛ وإذا حدث هذا فهناك إشكال ولكما الوزر، فتنبني على الحرية دائما المسؤولية، وعلى المسؤولية الثواب أو العقاب، فهذا أيضا من مظهر تكريم الله عز وجل لهذا الإنسان، أنه منحه عقلا به هو حر يختار، عقل مميز، يميز به بين الصالح والطالح، بين ما ينفع وما يضر، بين الطيبات والخبائث، وأصدر له الأمر على ضوء ذلك، عكس الملائكة الذين هم مسخرون لما هم مسخرون له، وعكس الشياطين الذين هم مصدودون عن الطاعة ولا يعرفون إلا المعصية، هذا الإنسان كان مسؤولا عن الحرية التي أعطيت له.

ثم إن من مظاهر التكريم المرتبطة بهذه الحقيقة نفسها هو أن الله علم هذا الإنسان كيف يصلح خطأه إذا أخطأ، وكيف يعود إليه مكرما إذا أهان نفسه بالخطأ، وكيف يمحو السيئة بالحسنة ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(البقرة:٣٧)، هي كلمات الاستغفار، وصارت هذه دائمة في بنيه مستمرة ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(الأنفال:٣٣). بعد ذلك كانت هاته المنحة الكبيرة التي من أجلها خلق آدم، هي منحة الخلافة، هي منة الخلافة؛ بعد كل هذا وبعد هذا التدريب في هاته الصور استخلف آدم في الأرض؛ إذ في الأمر الأول قال الله عز وجل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠) وكل ما سبق ذلك من صور التكريم الأولى ومن التداريب التي أجريت عليه في مرحلة الجنة، كل ذلك تحضير للمنة الكبرى التي هي الخلافة، التي من أجلها خلق

آدم ومـــن أجلها كان ما كان من بعده من ذريته؛ فهذا أيضا من تكريم الله ﷻ له؛ وما معنى هاته الخلافة؟ معناها أن هذا الإنسان في موقع النيابـــة عن الله ﷻ، ولكن لا ينوب أحد عن الله ﷻ، فالله ﷻ وضع هذا الإنسان في موقع أعطاه فيه الحرية والاختيار وزوده باللوازم الضرورية للقيام بالمهمة وجعله في الأرض وسخر له كل ما سواه، هذا لا يظهر في التكريم الأول لآدم عليه السلام ظهورا واضحا، ولكنه سيظهر بعد في مظاهر تكريم ذريته من بعده.

تكريم آدم تكريم لذريته أيضا

فإذا مظاهر تكريم الله ﷻ لآدم عليه السلام كثيرة ومتنوعة، وهي تجعله في موقع عليّ جدا، وحسبنا أنه في موقع الخليفة وأنه حين أهبط إلى الأرض واستخلف فيها زُود بالهدى والاجتباء ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(طه:١٢٢) فحصلت له هاته الهداية التي جعلت لا يصدر منه إلا ما ينســـجم مع تكـــريم الله ﷻ. وهاته الهداية ستستمر قانونا عاما في ذريته من بعده.

فهذا التكريم لهذا الإنسان الأول الذي هو آدم عليه السلام ستصبح الإشـــارة إليه في حد ذاتها مظهر من مظاهر تكريم بني آدم، أي إن الله ﷻ حـــين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠) و لم يقل "ولقد كرمنا الناس" أو "البشـــر" أو "الإنسان"، فهو إشعار لهـــم بأنهم أبناء ذلك المخلوق الأول ذي النعم المذكورة، والموقع الذي هو موقع النبوة والرســـالة، الراشد المهدي، والعبد الصالح المصلح، والإنســـان السيد وســـط كائنات متعددة متنوعة كلها جُعلت خادمة له وخُلقت من أجله، وخُلق هو لشـــيء آخر هو العبادة.. فهاته الإشارة: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ في حد ذاتها تكريم للإنسان خصوصا في زماننا هذا، حيث أرجع من أرجع أصل الإنســـان إلى القرد.. إلى كائنات هي في الأصل خادمة للإنســـان وخلقت مسخرة له. فمن امتهان الإنسان وإهانته أن يُجعل خادما لغير الله ﷻ، ومن تكريم هذا الإنسان ألا يجعل عبدا إلا لله ﷻ. فما هي مظاهر تكريم بني آدم بعد آدم عليه السلام؟

مظاهر التكريم بعد آدم عليه السلام

مما نص عليه القـــرآن الكريم في مواضع كثيرة أن هذا الخلق كله لاسيما مخلوقات الأرض، ما خلقت إلا لبني آدم ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة:٢٩). ثم أيضا من تكريم الله ﷻ لبني آدم أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠). هذا التســـخير فيه ما يدخل ضمن الإرادة البشـــرية، بمعنى أننا نكتشف سننه ونكتشف مفاتيح تســـخيره، فهو داخل في قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣). وفيه ما هو فعلا يمدنا بعطاء مســـتمر دائم لا حد له ولا حصر، لا يملك حتى القدرة الإحصائية، وقد أشار الله تعالى في آيات متعددة أنه ســـخر لنا الشمس والقمر، وسخر لنا الليل والنهار والبحر والفلك والأنعام... وما لا نعلم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(إبراهيم:٣٤). فالله ﷻ سخر لنا كل شيء، هذا لنشـــعر نحن بجليل نعمة الله ﷻ علينا، فنشكر المنعم الكريم، ونتجه إلى أن نعبده بكل ذلك الذي ســـخر لنا، ونحسن تسخير ذلك في عمارة أرضه وفي نفع عبـــاده كما في الحديث: "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" (رواه أبو يعلى والطبراني).

إنزال الهدى الرباني

ومن هاته المظاهر إنزال الهدى الربـــاني إليهم، وتزويدهم بمنهج يحفظ لهم كرامتهـــم، ويحافظ على ذلك التكريم الأول الذي لهم في الأصل أي آدم الذي منه تناســـلوا، وعلى التكريم الأول الذي هو الفطـــرة التي خلقوا عليها. إذ من الـــولادة إلى البلوغ تعرو الإنســـان حالات متعددة تؤثر فيه، حالات كســـبية قد تطمس فطرته تماما، ذلك أن إبليس حين قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٦٢). منذ تلك اللحظة يئس من آدم خصوصا بعد الاجتباء، ولكنه قطع وعدا على أن يعترض ذريته من كل الوجوه ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾(الأعراف:١٦-١٧)، هم خلقـــوا حنفاء كما قال الله ﷻ: "خلقـــت عبادي حنفاء" (رواه مسلم)، أي على الفطرة المستقيمة كأبيهم آدم عليه السلام، ولكن إبليس هـــذا الذي لم يرض أن يكرم آدم عليه، قطع وعدا على أن يضل أبناء آدم، ويقعد لهم في الطريق نفسه، في الصراط، حتى أنه حذف الخافضة لم يقل: "في صراطك المستقيم". ونظرا لهذا الأصل الأول الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(فاطر:٦)، هو عـــدو لكم في الأصل، من لحظة الانطلاق، وقطع على نفســـه أن يعاديكم باســـتمرار، لا يعرف كللا ولا مللا، وليســـت له وظيفة ولا مهمة غير هاته، فاتخذوه يا بني آدم عدوا، أقول: إبليس وجنده وأتباعه من شـــياطين الإنس والجن يجتهدون على أبناء آدم في أن يخرجوهم عن الصراط المســـتقيم، أن يخرجوهم من النـــور إلى الظلمات ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة:٢٥٧)؛ عملية الإخراج هاته التي قد تأتي تجعل الإنسـان بعد أن يصير مسؤولا

ويتأهل لحمل الأمانة بعد أن يبلغ ويرشد، يواجه الأمانة مباشرة، في هاتــه المرحلة يأتيه الهدى، يأتيه المنهج الرباني الذي يرشـده إلى الكيفية التي بها يعـود إلى كرمه الأول، والتي بها يحافظ على تكريم الله ﷻ له، والتي بها يكرم سـواه أي يعامله معاملة كريمة، هذا المنهج هو الرسـالات كلها، من أجل هذا الأمر جاء الرسل وأنزلت الرسـالات، بتعبير آخر: إن الله ﷻ من تكريمه لبني آدم أنــه منحهم هدية منه رحمة بهم وتفضلا منه تعالى. هي منهج إذا صاروا عليه ظلـوا كرماء كأبيهم آدم بعد أن اجتباه الله وهداه، وحافظوا على هذا الكرم وعاملوا بعضهم بعضا بما يناسـب هذا الأصل الأول الـذي هو التكريم. إذاً فكل خروج عن منهج الله ﷻ فيه إهانة لهذا الإنسـان، وفيه تدنيس له، لأن الكرم يضاده اللؤم، فالذي يخرج في تعامله فردا كان أو جماعة عن منهج الله ﷻ هـو في الحقيقة يصير بذلك لئيما غير كريم، ويعامل الآخر معاملة لئيمة ليست كريمة. وبما أن ضد الكرم الإهانة ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾(الحج:١٨)، كل خروج عـن منهج الله ﷻ فيه إهانة للنفس نفسـها وإهانة للآخر الإنسان المعامَل ومخالفة للأصل الأول ولمقتضى الفطرة، ولتكريم الله لآدم وبني آدم.

ما هي الأسـس الكبرى لهذا المنهج؟ نكتفـي بأمرين فقط، مظهران كبيران لتكريم الله ﷻ للإنسان في المنهج النازل لهذا الإنسان:

ميثاق الخلافة

الأمر الأول: أنه طلب منه أن يعبده هو وحده لا شـريك له، وجعـل الهدف من خلقه هو هذا ﴿وَمَا خَلَقْـتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريـات:٥٦)، وجعل شديد العقوبة بل أشد العقوبة على الإطلاق أن يعبد هذا الإنسـان غير الله ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(النسـاء:٤٨)، لمَ؟ لأن عبادة الإنسـان لغير الله فيها إهانة عظمى لآدم الذي ننتسب إليه والذي أسـجد له الملائكة وجعل خليفة وسيدا على سواه فيهينه هذا العابد لغير الله بعبادة شـيء أدون من هذا الإنسـان، فكأن الإنسان ينتكس تماما ويُدسى ويحط من قيمته، فبدل أن يتجه إلى فوق بأن يكرم ويشرف يدنى ويتجه إلى تحت، لأنه يعطي العبادة للأقل منه بدل أن يعطيها للأكـبر منه الذي هو الله ﷻ. ومثل ذلك إذا أعطاها لمثله لماذا؟ لأنه وضع الشـيء في غير موضعه، إذ من ميثاق الخلافة أن هذا الإنسـان لا يعبد إلا الله وفق ما أنزل الله وهـدى الله ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّ هُدًى فَمَـنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨) فأن يعبد غـير الله -كيفما كان هذا الغير- هو وضع للشـيء في غـير موضعه ومخالف للتكريم، لأن أمـره بعبادة الله ﷻ هو مـن تكريم الله ﷻ له، أن يتجـه إلى الأعلى إلى الله ﷻ، وحين ينصـب مخلوق مـا في مقام المعبود كذلك يضع نفسـه في غير الموضع الذي وضع فيه، وذلك أيضا خلاف التكريم لهذا الإنسان.

فإذاً هاته النقطة التي هي عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وتعبيد الناس لله وحده لا شـريك له هي أكبر مظهر لتكريم بني آدم، وعكسها هو أكبر إهانة وتدنيس لهذا الإنسان، لأن في التكريم تزكية وتطهرا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(الفرقان:٧٢) أي لم يتدنسـوا بذلك اللغو وكانوا متطهرين. فكلُّ وضـع فيه غيرُ وضـع العبادة هـو وضع فيه إهانة للإنسـان، وهو مخالف لتكريم هذا الإنسـان كيف ما كان هـذا الوضع، ولذلك عبر الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣). والظلم في العربية هو وضع الشـيء في غير موضعه. فلا يوجد خلل بدرجة هذا الخلل، فما خُلق الإنسانُ له أساسا يقع فيه الخلل، ويُعكس تماما.

> **هذا القرآن وكل الهدى النازل من عند الله ﷻ، هو من جنس ما نفخ في آدم؛ وبهذا النازل يقع الالتحام مع هذا القسم في الإنسان، فيكرم الإنسان ويشرف ويسمو. إذ هذا النفخ من روح الله فيه هو من مظاهر تكريم آدم عليه السلام.**

إقامة القسط بين الناس

الأمر الثاني: يَتْبَعُ هذا وينتج عنه وله كذلك جاءت الرسـالات كلها، وله نزل هذا الهدى من عند الله ﷻ، هو إقامة القسط بين الناس: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥). فكل ما حدث قبلُ هو من أجل هذا الأمر، هذا القسط الذي تشير إليه هذه الآية هو الذي يحفظ لكل ذي حق حقه، أي هو الذي يجعل الإنسـان في نفسه يعامل نفسه بكرم ويحافظ على تكريم نفسه كأصل خلقتها الأولى وهو الذي يجعله حين يتجه بسلوكه نحو الآخر، كذلك يعامله بكرم.

ومـن هاهنا كانت كل النواهي تعني أن المنهي عنه فيه إهانة

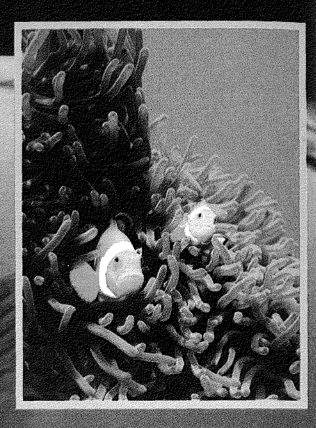
للإنسان، وإضرار بالإنسان، وفيه خلاف تكريم هذا الإنسان.. وكل الأوامر عكس ذلك؛ فيها تكريم لهذا الإنسان، وفيها فعل ما يجعله كريما وما يناسب كرمه، لأنها تجر إليه المنفعة، وتدرأ عنه المفسدة. فإذاً كل الصفات الخبيثة وكل الأفعال القبيحة هي في هذا الميزان إهانة للإنسان وليست إكراما له، فهي مناقضة لتكريم الإنسان.

وعلى ضوء هذا نستطيع القول بأن الإنسان اليوم في وضع لا يحسد عليه؛ الإنسان في العالم الإسلامي وفي غير العالم الإسلامي لا يحظى بهذا التكريم لسبب بسيط واضح أنه لا يسير وفق هذا المنهج الذي هو وحده يضمن تكريم هذا الإنسان ويضمن معاملته بكرم، وهو وحده الذي يقوم الناس فيه بالقسط، لأن من الذي يعرف القسط أولا؟ هل يستطيع الإنسان أن ينصبّ نفسه في موقع المشرّع لهذا الإنسان؟ هل يستطيع الإنسان أن ينصبّ نفسه في موقع يخطط فيه لهذا الإنسان بمعزل عن هدي الله لهذا الإنسان؟ كلا ثم كلا؛ هل يستطيع هذا الإنسان بمحض عقله فقط، وبمحض إمكاناته الشخصية التي ليس لها مدد من الله ﷻ الماثل في الرسالات وهي هنا في زماننا القرآن الكريم؟

هل يستطيع الإنسان اليوم بغير القرآن أن يهتدي إلى طريقة على جميع المستويات: في المستوى الاقتصادي والسياسي والتعليمي والإعلامي والحقوقي والمادي والروحي...؟ هل يستطيع الإنسان بمحض إنتاجه الشخصي معزولا عن الله مستقلا عن هدى الله مبتعدا عن منهج الله؟ هل يستطيع فعلا أن يرسم لبني آدم طريقة بها يعيشون مكرمين كما خلقهم الله ﷻ؟ كلا ثم كلا؛ إنه لا تكريم لهذا الإنسان في ديارنا هاته وفي غير ديارنا، وفي دار الأرض كلها التي وُعد بوراثتها الصالحون ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وعباد الله الصالحون يشرحهم الآية بوضوح، قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت:٩)، والإيمان عنوان على كل ما يدخل إلى عقل ابن آدم من المعلومات التي مأتاها الوحي أساسا، و"عمل الصالحات" هو عنوان على كل ما يلزم لخلافة الله ﷻ في الأرض وفق شرع الله، وفق هدى الله، حسب ميزان الله، فلا صلاح لعمل إلا من بعد أن يأذن الله في هذا العمل ويرضى عنه. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

ملاحظة: لقد تم تحرير هذا المقال من إحدى محاضرات الدكتور البوشيخي والتي ألقاها في ١٢ مايو ١٩٩١ بمكناس-المغرب.



أسماك ترصد الزلازل

جمال الحوشي

في مساء السادس من أيار لعام ١٩٧٦م وفي مدينة "فريولي" الإيطالية ارتفعت أصوات الحيوانات فجأة ودونما سبب ظاهر؛ الكلاب تنبح وتجري هنا وهناك، القطط مذعورة، الفئران تملأ الأزقة، الجياد والأبقار هائجة وعصبية، ويحاول أكثرها أن يسحب أربطته، الطيور تسعى ضاربة بأجنحتها ومطلقة صرخات تبدي منها الفزع، وكأن شيئا ما يستثير هذه الحيوانات ويدفعها لهذا التصرف العجيب.

لم يصدق سكان المنطقة ما رأوه بأعينهم، وصار ذلك محور حديثهم تلك الليلة، وتمضي الساعات بطيئة، وما إن حلّت الساعة التاسعة من تلك الليلة حتى شعر السكان بالأرض تميد من تحت أقدامهم، وما هي إلا ثوان معدودات حتى ضرب زلزال عظيم المنطقة مخلّفا وراءه ما يزيد على ألف قتيل من السكان!

وحادثة أخرى مماثلة في "سان فرناندو" حيث اطّلع المحللون على تقرير سبق الكارثة هناك وفيه: "جيوش من الجرذان تملأ شوراع بلدة "سان فرناندو" -بالقرب من لوس أنجلوس الأمريكية- مع أن الناس كانوا يفترضون أنّ بلدتهم تخلو تماما من الجرذان. وفي اليوم التالي تصيب هزة عنيفة وادي "سان فرناندو" وتؤدي إلى كارثة بيئية.

وفي زلزال تسونامي الأخير في الجزر الأندنوسية وما جاورها لاحظ السكان حركة مريبة للحيوانات قبل حصول المد بقليل ونزوحا جماعيا باتجاه الأعالي.

نظرة علمية نحو هذه الظاهرة

لقد أثارت هذه الحوادث وأمثالها اهتمام ودراسة عدد من العلماء، خاصة وأنها تتكرر بين فترة وأخرى، لقد أصبح الأمر جليا واضحا في حتميةِ وجود غرائزَ خفية للحيوانات تزوّدها

بنوع استشعار لا يدركه البشر بحواسهم المحدودة وأجهزتهم المعقدة الحديثة.

من أولئك العلماء الذي اهتموا بهذه الظاهرة في السبعينيات "هلموت تريبوش" الأستاذ بجامعة برلين الذي قام باستثارة الاهتمام بهذا الموضوع قديمًا -في عام ١٩٧٦م- وأخذ يجمع ما تناثر هنا وهناك من أحداث مماثلة وقعت عبر التاريخ، وما سبق بعض الكوارث الزلزالية -أمثال زلزال "هيليس" اليونانية، وزلزال "لشبونة" المدمّر- من ردود فعل "غريزية" للحيوانات تشبه إلى حد كبير ما حدث قبيل كوارث معاصرة ومماثلة كزلزال مصر الأخير ١٩٩٢م، عندما اضطربت الحيوانات في حديقة الحيوان بالجيزة قبل عشرين دقيقة من الزلزال المدمّر، وما شابه تلك الحالات في "سان فرانسيسكو" وغيرها.

بعد ذلك بقليل -وبالتحديد في عام ١٩٧٧م- عقد في الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر علمي اشترك فيه عدد من العلماء من مختلف التخصصات وأهمها علوم الأرض والحياة، لدراسة إمكانية استخدام الحشرات والحيوانات في التنبؤ عن قرب وقوع الزلازل. وقد تمّ رصد الحالات التي سجّلت أثناء المتابعة فلم يحدث أن سجلت حالة واحدة لم يصدق فيها إنذار تلك الحيوانات عبر تصرفها الملحوظ قبل الكارثة، وبالفعل أقيمت أول مستعمرة من نوعها في التاريخ تضم العديد من الحيوانات والحشرات. والهدف الذي أنشئت من أجله هو دراسة تصرف هذه الحيوانات وردود أفعالها كإشارات لكوارث قريبة قادمة.

لقد بات اليابانيون يدركون -بعد تعرّض اليابان للعديد من الهزات الأرضية- أنّ تصرف "سمك الزينة" يفوق في هذا المجال أكثر آلات الرصد دقة؛ فقبل وقوع الزلزال بساعات يصاب هذا النوع من الأسماك بحالات غريبة من اضطراب في السلوك وذعر، ثم تأخذ بالدوران والاندفاع داخل أحواضها اندفاعا جنونيا.

وكلما قرأتُ عن هذه الحقائق العلمية الواضحة وغيرها أظل أتفكر مليا فيما سطرتْه كتب سلفنا الصالح حول هذا الأمر أو رووه من أحاديث ومشاهدات؛ ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها حين قالت: "دخلَتْ عليّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. فكذّبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، خرجتا، ودخل عليّ النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن عجوزين....، وذكرت له الخبر، فقال: "صدقتا، إنهم يعذّبون عذابا تسمعه البهائم كلها"، فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر (رواه البخاري).

وكم قرأنا عن حوادث عجيبة تحكي جفول بعض الحيوانات عندما تجاوز بعض القبور التي يعذب أصحابها، تماما كما كان يشاهد من تصرفاتها قبل وقوع مثل هذه الكوارث البيئية.

الملائكة دنت لصوت أسيد ﷺ

وفي السياق ذاته تطالعنا حادثة نادرة من أعجب ما كتب في هذا الباب، وتحكي قصة اضطراب فرس عربي أصيل كان يملكه الصحابي الجليل أسيد بن الحضير ﷺ حدث ذلك ذات ليلة صافية من ليالي المدينة النبوية -حرسها الله-. لقد كان أسيد ﷺ في تلك الليلة يقرأ القرآن خارج بيته -كعادته- بصوت ندي خاشع، وكان بقربه ابنه الصغير يحيى نائما، لكن العجيب في تلك الليلة بالذات أنه لاحظ تصرفا عجيبًا للفرس، إذ كلما قرأ القرآن جالت فرسه وتحركت واضطربت، فإذا سكت سكنت، ثم إذا أعاد القراءة اضطربت أشد من الأولى، وهكذا، حتى تكرر ذلك منه ومن الفرس ثلاث مرات. يقول ﷺ: فانصرفت عن القراءة مشفقا على ابني يحيى أن تصيبه الفرس، فلما قرّبته مني رفعت رأسي إلى السماء فإذا أنا بمثل الظُّلّة البيضاء فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى توارت عني. لقد اكتشف أن اقتراب تلك الظُّلة البيضاء بلا شك كان السبب في اضطراب الفرس وتحرُّكها، فلما أخبر رسول الله ﷺ عما حدث له البارحة قال له ﷺ: "أو تدري ما ذاك؟" قال: لا، قال: "تلك الملائكة دنت لصوتك" الحديث (رواه البخاري).

بل لقد صرّح ﷺ في حديث آخر أن لدى بعض الحيوانات مقدرة خارقة على رؤية ما لا يستطيع البشر رؤيته بحواسهم حيث قال ﷺ: "إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت مَلَكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا" (رواه مسلم). إن هذه التصرفات بلا شك تنم عن وجود غرائز كامنة مركّبة في هذه الحيوانات، وهي التي تدفعها إلى استشعار ما قد يعجز البشر عن إدراكه بحواسهم الضعيفة، ولقد تباينت آراء العلماء المتخصصين عند دراسة أمثال هذه السلوكيات والغرائز التي تنم عن قدرات "خارقة".

سر عظيم من أسرار الوجود

فهناك رأي مفاده أن هذا السلوك يعود إلى التقلبات في الحقول المغناطيسية، ووجود استجابة قوية عند بعض الحيوانات في هذا المجال. ولكن ثبت بالمشاهدة والمتابعة المستمرة عدم استقرار هذا العامل كمعيار ثابت يمكن أن تفسر به سلوكيات بعض

الحيوانـات في ظروف مماثلة، كما حدث مثـلا داخل عربات قطار في محطة للشحن بإيطاليا؛ كانت هذه العربات مصنوعة من صفائح فولاذية رقيقة يوجد بداخلها حيوانات محتجزة، ومع ذلك لم يؤثر ذلـك على مقدرتها بالرغم من كون المكان محكما ومعزولا ضد التقلبات المغناطيسية والموجات الكهربائية.

ويُرجعُ البعض الآخر هذه الغريزة إلى قوة خارقة في حاسة السمع لدى هذه الحيوانات والحشرات، بحيث تسمع التحركات التي تسبق الزلـزال في باطن الأرض، ويرجّح البعض نظرية الحساسية المفرطة لدى هذه الحيوانات لمعرفة التغيير الذي يحدث على الصخور قبل الزلزال. بينما يفضل البعض ببساطة أن ينسب هذه التصرفات الذكية الخارقة إلى "الغريزة العمياء"! وكثيرًا ما يعلّق -بعد سرد شواهد حية في الموضوع- بقوله: "لاشك بأن هذه الغرائز عمياء، وهي قوى توجّه سلوك هذه الحيوانات"! وهذا يتطلب من القارئ البصير وقفة متأملة ناقدة لدحض مثل هذا التفسـير الـذي يفضل صاحبـه الهروب مـن الحقائق الثابتة بمثل هذا الكلام بدلا من التأمل فيها، وإدراكِ سر عظيم من أسـرار الوجود حوله تزيده إيمانا وثباتـا. والدليل على ذلك أن هذه السلوكيات الغريزية وأمثالها غير قاصرة عند حد استشـعار الزلازل ونحوها من الكوارث البيئية فحسـب، بل تتجاوزها إلى سـلوكيات أخرى فذة وغريبة لا تتصل البتة بالظروف البيئية أحيانا!

إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ﷻ ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة "الاستدلالية"، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته..

لا عشوائية في الكون

أما دعوى "العشـوائية" و"العمى" الذي لا هدف من ورائه، ولا محرك له في وصف هذه الغرائز، فإنها دعوى يردها النظر البسيط في روعة مثل تلك التصرفات السلوكية التي تقوم بها تلك الكائنات. ولو تأمل فقط في طريقة بناء الطائر الصغير لعشـه الرائع لتساءل طويلا عن القوة المحركة لهذه الغريزة الواعية! فمن الذي علّم هذا الطير ذلك الفن الرفيع؟ ولماذا تتشـابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع؟ إذا قلت: إنها الغريزة -المجردة- فإن ذلك قد يُعَدّ مخرجا من السـؤال، غير أنها في الواقع تعد إجابة مريحة، ولكـن قاصرة. فما هي هذه الغرائز؟ ومن محركها الحقيقي؟ وما هي ماهيتها، ومعالمها؟ أفليس من المنطق ومن الإنصاف أن نرى آثار قدرة الله تعالى تتجلّى في سلوكيات هذه الكائنات التي خلقها فسوّاها وفقا لقوانين وسنن خاصة لا نكاد ندرك من كنهها شيئًا؟

إنه الله القدير الذي تظهر آثار قدرته، ومعالم حكمته، ومظاهر رحمته من حولنا، إنه الله الذي خلق الكون وحفظه، وسخره لهذا المخلوق البشـري الذي كرمه من بين سائر المخلوقات، أفليس هذا الجواب المريح إذن أَوْلَى وأحرى بهذا الإنسـان الجاحد؟ إن ذلك هو ما توصل إليه كثير من العلماء المتخصصين في سلوكيات الكائنـات الحية، ممن آمنوا بالله العظيم سـبحانه من خلال هذا النظر المجرد الذي يوقد شـعلة الإيمان ويحرك كوامن الفطرة في نفوسـهم. إذا كان هذا الإيمان العميق بالله سبحانه يتولد في أعماق هؤلاء العلماء الماديين من جرّاء تتبع السلوك العجيب لهـذا الطائر الصغـير، بل من خلال دراسة سلوك واحد متواضع من سلوكياته ألا وهو طريقته في بناء عشه التي لا تكاد تختلف من طائر إلى آخر من النوع ذاته، بل قـد يؤخذ هذا الطائر صغيرا من عشه، لا يدرك شيئا مما يحيط به، ثم عندما يعزل تماما عن كل المؤثرات البيئية المحيطة ويكبر يصنع لنفسـه عشا على نمط نوعه تمامًا! فـأي قدرة عليمة تكمن خلف تلـك الغرائز الواعية؟! إذا كان هـذا الإيمان العميق بالله الخالق العليم سبحانه يشرق في قلوبنا من خلال التأمل في هذا السلوك العجيب من هذا الطائر الصغير، فدعونا إذن نقوم بجولة إيمانية أكثر إثارة، نتأمل فيها آثار قدرة ربنا سبحانه عبر النظر في سـلوكيات الكائنات الحية من حولنا، عسـى أن نتأدب معه ونحن نفسر هذه الغرائز الحيوانية الواعية مرة أخرى.

العنكبوت وأعمالها الهندسية

لقد زوّد الخالق الحكيم سـبحانه هذه الكائنات بمثل تلك الغرائز بطريقة تبعث على الدهشـة والإعجاب معا، حتى إنك لتنظر في تصرّف العنكبوت مثلا وهو يقيم عملا هندسـيا يحار العقل في فهم خطواته، ثم تتعجب بعـد ذلك من متانته وصموده بالرغم من رقته وخفته! إن هذه الحشرة الصغيرة تنسج خيوطها بصورة تختلف كل مرة مع الوضع الذي تجد نفسها فيه، وبيوتها مصنوعة



بدقة متناهية تأخذ بالألباب، ذلك أنها تتقيد بالمسافات البينية، وتراعي انفراج الزوايا في شكل هندسي رائع عبر نسيج من الحرير يبلغ قطره ثلاثة أعشار الميكرون (جزء من ألف من المليمتر)، وهو أدق وأرق وأخف وأمتن من حرير دودة القز، ويخرج من مغازل العنكبوت التي فيها عدد كبير من الأنابيب الغازلة قد يصل في بعض العناكب إلى ألف أنبوب؟! ونظرًا لأنه أدق خيط عرف في تاريخ البشرية فإنه يُعَدّ حاليا للاستخدام في صنع الأجهزة البصرية وخياطة جراحاتها.

الطيور المهاجرة

وتضرب لنا أسراب الطيور المهاجرة مثالا فريدا آخر لا يقل بهجة وروعة عن ذكاء تلك الغرائز التي ركبها الله تعالى في هذه الطيور؛ ذلك أنها تبدأ في هجرتها الجماعية عندما تستشعر اقتراب موسم البرد -وبخاصة طائر السنونو- فتبدأ هذه الطيور رحلتها الطويلة من البلاد الباردة إلى البلاد الحارة على هيئة أسراب جماعية تحلّق معا في السماء، وقد تقطع في غالب الأحيان نحو ألف ميل فوق عرض البحار، ولكنها مع ذلك لا تضلّ طريقها أبدا مهما كانت قسوة الظروف الجوية، بل إن طائر السنونو يحركه شعور خفي بضرورة هذه الهجرة، ويلازمه ذلك الشعور حتى عندما يُحبَس في مكان دافئ في موسم هجرته المعتاد، وكأن هناك دافعا من الداخل يشعره باقتراب موسم البرد.

هجرة ثعابين الماء

وهناك لغز أعجب من هذا حيّر العلماء طويلا هو ما يتكرر سنويًا مع ثعابين الماء التي تسلك طريق هجرتها الطويل عند اكتمال نموها واقتراب موسم التزاوج؛ فتراها في وقت محدد من العام تتجمّع من مختلف البرك والأنهار لتهاجر معًا قاطعة آلاف الأميال في المحيط قاصدة إلى الأعماق السحيقة، وهناك تبيض ثم تموت!! ولا يزال هذا اللغز يدور في أذهان المهتمين بهذه الظاهرة، إذ ما هو المحرّك لها في سلوك هذا التصرف الغريب الذي يدفعها جميعًا في وقت واحد لتموت في مكان ناء عن موطنها الأصلي، بعد أن تضع بيضها؟! ولم يعثر على جواب يفسّر هذه الظاهرة حتى الآن.

وتتجلى الحكمة والقدرة العظيمة -لكن بوضوح أكثر وبصورة مدهشة لا يدرك كنهها العقل البشري القاصر في سلوك الصغار فيما بعد؛ ذلك أن هذه الصغار -بعد أن تخرج من البيض- لا تملك أي وسيلة لتعرف بها أي شيء من حولها سوى أن تعود أدراجها، وتسلك الطريق نفسه الذي جاءت منه أمهاتها، فتقاوم في سبيل ذلك التيارات القوية والأمواج العاتية المتلاطمة وتقطع كل هذه المسافات الطويلة التي تعجز عن تحملها أجسامها الصغيرة، ثم تتوزع إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة في موطنها الأصلي، ولهذا يظل كل جزء من الماء آهلاً بثعابين البحار! فمن أودع فيها تلك الرغبة والعزيمة، ومن هداها لسلوك هذا الطريق الطويل حتى تعود إلى بيئتها الأصلية؟ إن الغرائز "العمياء" بذاتها تعجز عن هذا السلوك الباهر بلا ريب.

التوقيت الزمني العجيب

ولك أن تتفكر في خصيصة أخرى تتميز بها تلك السلوكيات الغريزية لدى هذه الكائنات؛ ألا وهو "التوقيت الزمني" العجيب الذي يحكم سلوكياتها الرائعة، إنه أمر باهر حقا يدعو للنظر والتأمل؛ فلو نظرت إلى الطيور المهاجرة بأسرابها الكثيرة لأدركت أن لها وقتا محددا من العام للطيران إلى وجهتها المحددة مسبقا إلى الشمال أو إلى الجنوب، وكل فرد منها عندما تحين ساعة الهجرة ينضمّ إلى سربه، ثم تهاجر جميعا في يوم واحد يكاد أن يكون معينا كل سنة!

بل إن دقة هذا التوقيت وروعته تبدو جليا في حياة الجراد؛ وهو أمر أعجب يحار منه العقل في إدراك تلك الدقة المتناهية التي تبدو لأول وهلة وكأنها ضرب من الخيال إذ لا يكاد موعد خروج الصغار من البيض -بعد سنوات طويلة من الظلمة في جوف الأرض- يتقدم أو يتأخر!.

وقد قرأت أنه وجد في ولاية إنجلاند الأمريكية -وبعد دراسة لموسم التكاثر عند الجراد- أن الجراد البالغ من العمر سبع عشرة سنة يغادر شقوقه تحت الأرض -حيث عاش في ظلام دامس مع تغير طفيف في درجة الحرارة- ويظهر فجأة بالملايين في شهر مايو من سنته السابعة عشرة، وقد يتخلف بعض المتعثر عن رفاقه



-بطبيعة الحال- ولكن الكثرة الساحقة تنضج بعد سنوات الظلام تلك، وتضبط موعد ظهورها باليوم تقريبا دون سابقة ترشدها!

صرّار الليل ودرجة الحرارة

وليس هذا هو كل ما يتعلق بذلك التوقيت الدقيق الذي يُسَيِّر تلك الغرائز، بل إن هناك سلوكيات متكررة قد لا تدرك بمجرد النظر العابر؛ بينما تكمن من ورائها معادلات ثابتة لا تتغير باستمرار، ولعل أروع مثال لذلك السلوك الغريزي يتمثل في تصرف نوع من صرّار الليل الذي يصر عدة مرات في الدقيقة الواحدة تختلف دائمًا باختلاف درجة الحرارة المحيطة! ولما أُحصيَت مرّات صريرها وجد أن هناك سرا مذهلا يكمن وراء ذلك الاختلاف في مرّات الصرير، ذلك أنها تسجل درجة الحرارة بالضبط مع فارق درجتين فقط! ومع تكرار المتابعة والرصد كانت النتيجة التي تم التوصل إليها ثابتة دائما على مدار ثمانية عشر يومًا! إنها قدرة الله تعالى تظهر لكل من تأمل وتفكر في الكون من حوله.

الاتصال اللاسلكي بين الحيوانات والحشرات

وإذا جاوزنا هذا السر العظيم من أسرار التوقيت الزمني لدى تلك الكائنات وتأملنا في طرائق الاتصال والالتقاء بين كثير من الحيوانات والحشرات لوجدنا نظامًا دقيقا آخر يحكم تلك السلوكيات الغريزية التي لا تختلف بحال من الأحوال، ويعجز البشر عن مشاهدتها فضلاً عن وصفها وتحليلها.

إن أظهر لغة للتفاهم بين بني البشر -كما نعلم- هي لغة الكلام التي لابد من تعلّمها منذ الصغر ليسهل التفاهم ويحصل الاتصال الاجتماعي فيما بعد، ولكن هذه اللغة تختفي تماما عند غير بني البشر من الحيوانات و الحشرات المختلفة ليحلّ محلها قدرات أخرى "خارقة" تساعد تلك الكائنات على التفاهم والتخاطب. وتختلف لغة التفاهم هذه باختلاف النوع والصنف والطائفة في الأجناس الواحدة، فالنمل العادي مثلا يقوم أفراده بنقل انفعالاتهم إلى رفاقهم بواسطة تلامس قرون الاستشعار! بينما في عالم النحل نجد لغة أخرى لكنها أعقد وأدق في التفاهم بين الأفراد داخل الخلية وخارجها، فإذا اكتشفت النحلة أزهارًا متميّزة برائحتها وألوانها فإن لها طريقة أخرى للتخاطب ونقل الانفعالات غير النمل العادي، فهي ترشد بقية أفراد مملكتها عن طريق رقصات معينة تصدرها هذه النحلة يدرك مغزاها ومدلولاتها باقي النحل في الخلية لأنها مزوّدة بمقدرة هائلة على فك الشفرات الحركية وإدراك معانيها وأرقامها ووجهتها وما يتعلق بها، والتي يحتاج الإنسان إلى أن يفصح عنها بلغة الكلام في أسلوب هندسي أحيانًا كأن يقول لرفيقه -مثلا-: "طِر في خط مستقيم، بانحراف عشرين درجة على يسار الشمس، وبعد مائتي متر ستجد مساحة من أزهار البرتقال".

ومعلوم أن النحلة مهما ابتعدت عن خليتها فإن بإمكانها أن تعثر عليها مهما اشتدت الريح في هبوبها؛ ذلك أن النحل لا يرى الأشياء كما نراها نحن فهو لا تجذبه الأزهار الزاهية التي نراها، ولكنه يراها بالضوء فوق البنفسجي الذي يجعلها أكثر جمالاً في نظره، ولهذا فقد يعيش النحل في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ولا يؤثر ذلك في عمله إطلاقا.

الاتصال بين أفراد البعوض والفراش

أما أسلوب الاتصال بين أفراد البعوض فيختلف نوعا ما، لقد أكّد العلماء الدارسون لحياة البعوض أن قرون الاستشعار المثبّتة على رأس كل بعوضة والمزوّدة بعدد هائل من الشعيرات الدقيقة الممتدة من رأس الذكر يمكنها التقاط الذبذبات الصوتية التي تحدثها الأنثى من مسافات بعيدة، لتفوق في ذلك أدق الأجهزة

اللاســلكية التي اخترعها الإنســان على مدار تجاربه البشرية، والعجيب أن هذه الشعيرات لا تلتقط سوى إشارات أنثى البعوض فقط على الرغم من وجود أصوات عديدة أخرى في الجو تختلط فيها أصوات البشر بأصوات الطيور ومكبرات الصوت وغيرها! علما بأن الخالق -جل وعلا- قد زوَّد قرنَي الاستشــعار اللذَين تمتلكهما البعوضة بمَقدرة هائلة، ويكفي أن نعلم أن ذلك الطنين الذي نســمعه وتصدره البعوضة يحدث نتيجة ما يقارب ثلاثمائة ذبذبة في الثانية عن طريق اهتزاز قرني الاستشعار!

أما الفراشة فمهما حملتها الريح فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية يستجيب لها باقي الأفراد على مسافة بعيدة، وتصل الرسالة مهما أحدثت من روائح في سبيل تضليلها.

الإحساس والرؤية في الظلام

وكما تختلف طريقة التفاهم والتخاطب عند هذه الكائنات تختلف مواقع السمع والإحساس فيها كذلك، تبعا لأنواعها وطوائفها، فقــد توجد في أماكــن غريبة من الجســم كأن تكون في رِجْلِ الحشرة أو في منطقة البطن منها، وهكذا فالجندبة الأمريكية تحكُّ ســاقيها أو جناحيها معا فيسمع صريرها الحاد في الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل، وذلك عن طريق هزّها لكمية هائلة من الهواء من أجل إخراج ذلك الصوت القوي!

من جهة أخرى تســتخدم بعض الحشــرات التي تنشط ليلا وسائل أخرى عن طريق إشارات ضوئية ذات تردد معين -كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة- وهذه الإشارات ذات دلالة يفهمها أفراد النوع نفسه.

إن الإنسان ليصاب بالعجز تماما عن الإبصار إذا ما حلّ الظلام الدامــس، ولكنه لو كان على ظهر حصانه العجوز فإنه بإمكانه أن يصل إلى منــزله بسلام مهما اشتدت ظلمة الليل؛ لأن ذلك الحصان يتمكن من الرؤية في ذلك الليل البهيم عن طريق ملاحظة اختلاف درجة الحرارة في الطريق وعلى جانبيه بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة الحمراء في الطريق، وكذلك البومة التي تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ وهو يجري على الشعب البارد مهما تكن ظلمة الليل.

أمــا الخفاش فهو جندي الظلام الذي ينشــط في الليل وينام في النهار ولا يســكن إلا الكهــوف والأقبية المظلمــة؛ إذ إنه ضعيف البصر وســريع الطيران، ومع ذلك لا يصطدم بأي عائق أمامه، ســواء أكان جدارا أو عمودا أو غيره. ونتيجة للتجارب والملاحظات فقد وجد أن هذا الحيوان يُصدر أصواتا على شكل نبضات ذات ذبذبات عالية تقــارب مائة ألف ذبذبة في الثانية، وهذه الأصوات فوق مســتوى سمع الإنســان. وهذه النبضات الصوتية -التي يرسلها الوطواط (الخفاش)- إذا اصطدمت بشيء عاد رجعها إلى سمعه فأدرك أن أمامه ما يصطدم به مع الشــعور بمقدار سطحه، فينعطف عنه بسرعة ولا يصطدم به.

لا شــك بعد كل هذا أن مثل تلك السلوكيات الفذة ليست عمياء تحركها العشوائية والعبث؛ لأن من أخص خصائصها الدقة والتوقيت والانضباط، على الرغــم من تتابعها في الصنف ذاته، وفي النوع من الجنس المشترك على مدار الحياة.

إن قــدرة الله العليم الحكيم تتجلّى بوضوح من خلال النظر في هذه الســلوكيات "الغريزية" ولا تزال -حتى الآن- تقدّم لها الفرضيات العلمية المبنية على المشاهدة والتجربة في سبيل العثور على تفســير علمي دقيق يحكم هذه الغرائــز التي أودعها الخالق -جلــت قدرته- في هذه الكائنــات وتتوارثها جيلا بعد جيل!

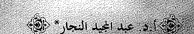
وهــذا ما يدعونا حقاً إلى التأمل في آثار قدرة الله العظيم من حولنا، عبر النظر في مخلوقاته وآياته المســطورة في صفحات هذا الكون الفســيح، وعندها ندرك الحكمة من أمر الله تعالى لعباده بمتابعة النظر، والتفكر في مخلوقاته وآياته، وأخذ العبرة من ذلك، قــال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).

ولهذا تجد كثيرا من العلماء الماديين المتخصصين في دراســة علوم الحياة والطبيعة يصرّحون بإيمانهم العميق بالله العظيم بعد أن يروا آثار رحمته وعلمه وقدرته ماثلة أمامهم.

يقول "ميريت ســتانلي كونجدن" -وهو عالم طبيعة حاصل علــى الدكتوراه من جامعة بورتــون-: "إن جميع ما في الكون يشــهد على وجود الله ﷻ ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحــن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراســتها، حتى باستخدام الطريقة "الاستدلالية"، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نســتطيع أن نصل إليه بالوســائل العلمية المادية وحدها، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته". وصدق الله القائل: ﴿سَــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُســهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ■

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.

محاور البعد الأخروي في فكر النورسي



أ.د. عبد المجيد النجار*

لا يخفى أن الناس المخاطَبين يختلفون في استعداداهم للقَبول، لاختلاف طبائعهم أو ثقافاتهم أو أزمانهم، فيكون لكلّ مدخل يدخل منه اليقين، وتلك هي الداعية التي دعت النورسي إلى التنويع في مسالك الاستدلال على عقيدة البعث، ومن أهم تلك المسالك نورد ما يلي:

١- مسلك الأنفس

استجابة للدعوة القرآنية التي توجه إلى أن تكون النفس الإنسانية منطلقا للاستدلال على حقائق العقيدة، فإن النورسي كان دائم الرجوع إلى هذه النفس للتأمل فيها، والتعمق في أغوارها، ليتخذ من مشاهدها مقدمات استدلالية على حقيقة البعث، مستضيئا في ذلك بالبيانات القرآنية في حقيقة النفس الإنسانية حينا، ومستعينا حينا آخر بالمكتشفات العلمية المسجلة في علم النفس، ومستكشفا حينا ثالثا أحوال النفس بتجربة استبطان ذاتي، وهو في كل ذلك يسلك مسلكا واحدا يبتغي فيه إثبات عقيدة البعث، وهو مسلك الأنفس كما جاء في التعبير القرآني. ومما بناه من الأدلة في سلوكه هذا المسلك ما يلي:

أ- دليل الاستعدادات الإنسانية

إن المتأمل في البنية النفسية للإنسان يجد أنه وإن كان هذا الكائن محدودا في طاقاته وقدراته الجسمية،

إلا أنه في طاقاته واستعداداته النفسية غير محدود، فهو يحمل من الآمال والتصورات ومن الميول والرغبات ومن القدرات والاستعدادات أقدارا غير متناهية، وفي ذلك يقول النورسي: "يرى العلماء المحققون أن أفكار البشر وتصوراته الإنسانية التي لا تتناهى، المتولدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله التي لا تحد، الناشئة من قابلياته غير المحدودة، المدرجة في جوهر روحه كل منها تمد أصابعها فتشير وتحدق ببصرها فتتوجه إلى عالم السعادة الأبدية وراء عالم الشهادة هذا". وما ذلك إلا لأن هذه الحياة الدنيا القصيرة المدى غير كافية لأن تتحقق فيها تلك الميول والآمال والرغبات، وغير كافية لأن تمتد فيها تلك القدرات والاستعدادات لتنفيذ متطلباتها، إذ "جميع لذائذ الدنيا لا تشبع الخيال الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية". وإذ قد تبين بالدرس أن الكون كله خلق على غير إسراف، فما من موجود كوني إلا وقدرت طاقاته بما يستوفيها في حياته، وهذا القانون الكوني قانون "عدم الإسراف" الثابتَ -حسب علم وظائف الأعضاء- في الفطرة جميعها ومنها الإنسان لَيبين لنا أنه لا يمكن أن تذهب هباء فيكونَ إسرافا جميعُ الاستعدادات المعنوية والاستعدادات غير النهائية والأفكار والميول؛ ولذلك فإن هذه الآمال والطاقات الإنسانية التي لا يمكن أن تتحقق في الحياة الدنيا لابد أنه قد هُيئ لها وجود آخر تستكمل فيه آمالَها واستعداداتها توافقا مع قانون عدم الإسراف، وتلك هي الدار الآخرة التي تتحقق فيها كل آمال الإنسان وقدراته واستعداداته ورغباته.

ب-دليل الشوق إلى الأبدية

في فطرة الإنسان حب شديد للبقاء، وشوق جارف إلى السعادة الأبدية "حتى إنه يتوهم نوعا من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئا إلا بعد توهمه البقاء فيه، ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا". وكل فطرة إنسانية يقابلها واقع موجود؛ ففطرة الجوع والعطش يقابلها وجود الطعام والماء، وفطرة الخوف يقابلها وجود الأعداء، وفطرة المحبة يقابلها وجود من يُحب، ولو لم يكن الماء موجودا ما وجدت في الإنسان فطرة العطش، وكذلك الأمر في كل مكونات الفطرة الإنسانية. فهل يكون الأمر كذلك في كل مكونات هذه الفطرة، ويتخلف في فطرة حب البقاء وعشق الأبدية؟

إن الاستنتاج العقلي يقضي بأن ذلك غير ممكن، وأنه إذا امتدت كل فطرة في الإنسان إلى ما يقابلها في الوجود، فإن فطرة حب البقاء يقابلها أيضا امتدادُ الإنسان في البقاء في حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأن في ذلك الامتداد تُشبع الأشواق إلى السعادة الأبدية، وهو ما عبر عنه النورسي في قوله: "الفطرة التي لا تَكذب أبدا والتي فيها ما فيها من ميل شديد قطعي لا يتزحزح إلى السعادة الأخروية الخالدة، تعطي للوجدان حدسا قطعيا على تحقق الحياة الأخرى، والسعادة الأبدية"، وهو ما عبر عنه أيضا في موضع آخر بقوله: "إن دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي -كما أنها ليست ظرفا- لإظهار ما لا يحد من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارها، فلابد أن يرسَل هذا الإنسان إلى عالم آخر. نعم، إن جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها". لقد كانت الأنفُس مسلكا للاستدلال على حقائق العقيدة عند علماء العقيدة، وهو ما تضمنته مؤلفاتهم عبر العصور، استجابةً في ذلك للقرآن الكريم. ولكن الاستدلالات في هذا الخصوص كان معظمها يتعلق بالاستدلال على الألوهية، ولكن الاستدلال بالأنفس لإثبات المعاد لم يكن له رواج في التراث العقدي إلا أن تكون إشارات متناثرة وواردة في سياقات مختلفة. أما النورسي فقد أورد الاستدلال بالأنفس على المعاد في مواضع عديدة من مؤلفاته، حتى غدا ذلك مسلكا أساسيا من مسالك استدلاله على عقيدة الآخرة.

٢- مسلك الآفاق

لعل هذا المسلك في الاستدلال على البعث هو أوسع المسالك التي دخل منها النورسي ليثبت هذه العقيدة، وليوجه المخاطَبين إليها كي تكون مداخل اليقين بالآخرة إليهم. وبالإضافة إلى أدلة كثيرة بناها بصفة أساسية على مشاهد الآفاق، فإن أدلة كثيرة مما أدرجه ضمن مسالك أخرى كانت لها صلة على نحو أو آخر بآفاق الكون. وقد أدرج النورسي ضمن هذا المسار جملة كبيرة من الأدلة نذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي:

أ-دليل الانهيار الكوني

إنما يتم البعث بعد انهيار هذا النظام الكوني الذي يحيا فيه الإنسان الحياة الدنيا، فهذا الانهيار هو إذن مقدمة من مقدمات الحياة الأخرى، أو هو جزء من أجزائها؛ ولذلك فإن الاستدلال على عقيدة الآخرة يتوقف بالضرورة على ثبوت أن هذا النظام الكوني آيل إلى الزوال، وإن لم يثبت ذلك أو ثبت عكسه فإن كل

الاستدلالات على عقيدة الآخرة سوف لن يكون لها معنى.

وإذا كانت نصوص الوحي تخبر بأن نظام الكون آيل إلى انهيار كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(التكوير:١-٣)، فإن هذه النصوص لا تقنع إلا مؤمنا، أما غير المؤمن فيحتاج إلى أدلة أخرى من العقل الفلسفي أو من القوانين العلمية، وهو ما سعى فيه النورسي ببيان أن الموجودات الكونية إذا نُظر إليها أفرادا، وجد كل فرد منها مفطورا على عمر مقدر ينتهي بعده إلى زوال في نظامه الذي يكون عليه. فالكون في جملته يكون كذلك أيضا، وتلك هي بداية اليوم الآخر. لقد شرح النورسي هذا المعنى في قوله: "هناك [في الكون] نشوء ونماء، وإن النشوء والنماء هذا يعني أن له عمرا فطريا في كل حالة، وإن العمر الفطري يعني أن له على كل حالة أجلا فطريا، وهذا يعني أن جميع الأشياء لا يمكن أن تنجو من الموت، وهذا ثابت بالاستقراء العام والتتبع الواسع. نعم، فكما أن الإنسان هو عالم مصغر لا خلاص له من الانهيار، كذلك العالم فإنه إنسان كبير لا فكاك له من قبضة الموت". وإذا كان هذا الانهيار الكوني لم يحدث بعد فإنه بالحساب العلمي قادم لا محالة، وذلك ما شرحه في قوله: "لئن لم تحدث للدنيا قبل أجلها الفطري وبإذن إلهيٍّ حادثةٌ مدمرة أو مرض خارجي، أو لم يخلّ بنظامها خالقُها الحكيم، فلا شك بحساب علمي أن سيأتي يوم يتردد فيه صدَى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، عندئذ تظهر معاني هذه الآيات وأسرارها".

ب-دليل الاستمرار

إذا كان البعث تستصعب تصوّرَه بعضُ العقول، فإن ذلك إنما هو بسبب ما يستصعبه العقل من استمرارية بقاء الإنسان حيا بعد موته المشهود للعيان، وذلك من أجل أن يتم حسابه ثم جزاؤه، فهذه الاستمرارية في حقيقة الإنسان -التي سيتم في مرحلتها الثانية الحساب- بالرغم من زوال مظاهره هي التي كانت مناط الإنكار من قِبل أكثر المنكرين للبعث؛ ولذلك فقد كرس النورسي جهدا كبيرا للاستدلال على أن استمرارية الحقائق مع زوال المظاهر أمر ممكن تشهد به مظاهر كثيرة من مشاهد الكون.

إن موجودات كثيرة من موجودات الكون تقضي مدة من وجودها لتقوم بدورها على كيفية مشهودة، ثم تختفي ليُظن أنها قد انقطعت عن الوجود وعن القيام بأي دور، ولكنها في الحقيقه وإن تكن قد اختفت في الظاهر فما زال لها نوع من البقاء تقوم فيه بدور وإن يكن دورا غير ظاهر للعيان، ولكنه مؤثر في الواقع، دال على استمرارية البقاء في حياة من نوع آخر غير نوع الحياة الأولى، وإذا كان ذلك ممكنا بل واقعا في هذه المشاهد الكونية، فإن استمرارية الإنسان في حياة أخرى بعد هذه الحياة ليقوم بدور آخر غير الدور الذي يقوم به في هذه المرحلة من الحياة الدنيا هو أمر ممكن أيضا.

في فطرة الإنسان حب شديد للبقاء، وشوق جارف إلى السعادة الأبدية "حتى إنه يتوهم نوعا من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئا إلا بعد توهمه البقاء فيه... ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا"

ولشرح ذلك، ولبيان كيف أن الشيء يفنى من جهة إلا أنه يبقى من جهات كثيرة يقول النورسي: "تأمل في هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية، إنها تنظر إلينا مبتسمة لنا في فترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها وهي إفادة المعنى، فالزهرة أيضا ترحل بعد أن تودِع في ذاكرة كلِّ مَن شاهَد صورتها الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتَها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها"، وإذن فإن الصورة قد تزول، ولكن نوعا من وجودها يكون له بقاء.

وليس نشر الأعمال للحساب في يوم آخر غيرِ هذا اليوم الدنيوي بأمر مستغرب، إذ شواهده قائمة في هذه الحياة الدنيا، وهي شواهد دالة على إمكانه، فلو تأملت في هذا الكون فإنك سوف تجد بقانون الوراثة نفسه أنه "لكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر أعمال، وله أفعال وله وظائف وله عبودية وتسبيحات بالشكل

الذي تظهر به الأسماء الإلهية الحسنى، فجميع هذه الأعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها، وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر، أي إنه كما يذكر بفصاحة بالغة أعمالَ أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر فإنه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الأغصان وتفتح الأوراق والإثمار". وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان، فإنه وإن قد زالت صورته الظاهرة فسيكون له يوم تنشر فيه أعماله كما نشرت أعمال النبتة بفعل بذرة البقاء.

٣- مسلك الإيمان بالله

أشرنا سابقا إلى أن النورسي كان منهجه في الاستدلال على العقيدة هو منهج الوصل بين الأدلة على مفرداتها المختلفة؛ ولذلك فإننا نجده في الاستدلال على حقيقة البعث كثيرا ما يستثمر أدلة قد تقررت في مفردات عقدية أخرى، وخاصة منها تلك الأدلة التي انتهت إلى إثبات عقيدة الألوهية، وبالأخص منها ما تعلق بإثبات الصفات الإلهية، فانطلاقا من تلك الأدلة وما انتهت إليه من إثباتات في شأن تلك الصفات ينطلق لبناء أدلة تثبت حقيقة البعث، وقد تكرر ذلك كثيرا في مؤلفاته، وتحصلت منه جملة من الأدلة نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

أ-دليل القدرة الإلهية

ومقتضاه أن كل من يؤمن بإله يتصف بصفة القدرة، فإن إيمانه هذا من شأنه أن يقوم له مقام الدليل على إمكان البعث؛ ذلك لأن هذه القدرة التي تبدت آثارها جلية في المخلوقات الكونية العظيمة فإن بعث الإنسان حيا ليُحاسَب ويجازى ثوابا أو عقابا سيكون داخلا في مجال تلك القدرة، فيثبت إذن إمكان هذا البعث لوقوع ما هو أعظم منه بفعل القدرة الإلهية.

وعلى سبيل المثال فإن قدرة الله تعالى خلقت الإنسان خلقا ابتدائيا، وهو الأمر المسلّم به، وذاتُ هذه القدرة يمكن بها إعادة الإنسان بعد موته، بل ذلك أهون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، "وحيث إنه ليست هناك مراتب قط في القدرة الإلهية الأزلية، لذا فالمقدرات هي حتما واحدة بالنسبة إلى تلك القدرة، فيتساوى العظيم جدا مع المتناهي في الصغر، وتتماثل النجوم مع الذرات، وحشر جميع البشر كبعث نفس واحدة، وكذا خلق الربيع كخلق زهرة واحدة سهل هين أمام تلك القدرة".

وإذا كانت هذه القدرة الإلهية في هذا العالم المشهود تَصنع النقيض من نقيضه كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾(يس:٨٠)، فإنها يمكن أن تصنع من الموت حياة فيكون البعث. وبهذا المعنى يقول النورسي للمخاطَبين لإقناعهم بإمكان البعث: "إنكم ترون إحياءَ واخضرار الأشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟". إن من يؤمن بقدرة الله إذن يترتب عليه أن يؤمن بإمكان بعث الأموات أحياء، كما يرى بشهادة الحواس أن القدرة الإلهية تحيي الإنسان ابتداء، وتخرج الحي من الميت والميت من الحي.

ب-دليل الحكمة والعدل

لقد خلق الله تعالى هذا الكون على أساس من العدل والحكمة، فكل شيء فيه قائم على حكمة، ومبني على توازن، وهي حكمة لا يشوبها خلل، وتوازن لا يداخله تفاوت، وهذا النظام البديع في الكون شاهد على ذلك، سواء في تركيب الموجودات أو في حركاتها أو في علاقاتها ببعضها، وما زالت العلوم الكونية تكشف عن ذلك يوما بعد يوم، حتى أصبح هذا الأمر أمرا مسلّما من قِبل جميع الناس، بل إن هذه المَظاهر من الحكمة والعدل التي يتقوم بها الوجود الكوني من أصغر الموجودات إلى أعظمها ما زالت يوما بعد يوم تجتذب العلماء المحققين في أسرار الطبيعة إلى دائرة الإيمان بالله تعالى، وذلك من خلال الوقوف على مظاهر حكمته وعدله.

ولكن بالنسبة للإنسان الذي خُلق على حرية في الاختيار وحُمّل أمانةَ التكليف، فإننا نرى حياته بمقتضى هذه الحرية لا يتحقق فيها العدل والحكمة، إذ كثيرا ما نرى ظالمين مجرمين يعيشون في الدنيا عيشة هنيئة ولا يلقون في حياتهم عقابا على ظلمهم وإجرامهم، ونرى آخرين مظلومين ومحسنين ولكنهم يعيشون حياة صعبة ويتعرضون لابتلاءات شديدة، ولا ينالون في مقابل إحسانهم جزاءً ولا مقابلَ مظلوميتهم عدلا، وذلك ما هو مُشاهَد في الحياة الاجتماعية.

ولو انتهى أمر الحياة على هذا النحو، فيذهب الظالم بظلمه دون عقاب ويذهب المحسن بإحسانه دون ثواب، لكان ذلك خرقا لما بُني عليه الكون من الحكمة والعدل، ولَمّا كان الله تعالى متصفا بهما، والحال أن ألوهيته تقتضي الاتصاف بهذه الصفات، فالإيمان بهذه الصفات يقتضي إذن أن تكون حياة الإنسان ممتدة إلى مدى أبعدَ من هذا المدى الدنيوي، وهو مدى أخروي يتم فيه العقاب للظالم المعتدي والثوابُ للمحسن المظلوم، وحينئذ يتم

التوازن والعدل وتتحقق الحكمة.

لقد ردد النورسي هذه المعاني في مواقع متعددة، ومن ذلك قوله: "يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم وما يقترفه من إنكار وكفر وعصيان تجاه مولاه الذي أنعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسق ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها ويخالف جماله وحسنه، إذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش، فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقة التي يُشاهَد آثارُها في الكائنات لا تَقبل أبدا ولا ترضى مطلقا بعدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معا أمام الموت"، وإذن فإن الإيمان بعدالة الله تعالى وحكمته يمكن أن يُستدل بها على ضرورة البعث في اليوم الآخر.

٤- مسلك المنفعة

كثيرا ما كان القرآن الكريم يعرض العقيدة الإسلامية في سياق الدعوة إلى الإيمان بها عرضا استدلاليا ببيان ما تحقّقه تلك العقيدة للإنسان من نفع في حياته الدنيا قبل حياته الأخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(طه:١٢٤)، ففي الآيتين دعوة إلى الإيمان بالله في سياق استدلالي ببيان ما يؤدي إليه ذلك الإيمان من منفعة اطمئنان القلوب، وما يؤدي إليه عدم الإيمان من شقاء المعيشة، ولا غرو فإن الدين كله -والعقيدة على رأسه- لم يكن إلا من أجل تحقيق النفع للإنسان.

وقد كان النورسي متقفيا لهذا المنهج القرآني في استدلاله على الآخرة، إذ كثيرا ما كان يعرض هذه العقيدة لإقناع المخاطَبين في سياق الاستدلال عليها بما تحققه من نفع دنيوي، فاتخَذَ إذن من المنفعة الحاصلة من الإيمان بالبعث دليلا على أن هذه العقيدة جدير بالإنسان أن يؤمن بها، وإذا كان هذا الضرب من الاستدلال يتجه إلى إقناع المخاطَب بالإيمان بالبعث بما هو خارج عن حقيقته الذاتية وهو المنفعة التي تحصل منه، وليس بما هو متعلق بذات تلك الحقيقة، فإنه استدلال مشروع، لأنه يفضي إلى ذات النتيجة، إذ ما تتحقق به منفعة حقيقية للإنسان لا يمكن أن يكون إلا حقا في ذاته، فتثبت إذن أحقيتُه الذاتية من خلال نتائجه؛ ولذلك فقد صاغ النورسي جملة من الأدلة على عقيدة البعث من خلال ما تُحققه من منافع. ومن تلك الأدلة ما يلي:

أ-دليل المنفعة الفردية

بيّن النورسي في مقامات عديدة من مؤلفاته كيف أن الإيمان باليوم الآخر تترتب عليه منفعة نفسية بالغة الأهمية، وتنبثق منه للمؤمن سعادة غامرة، وتكسبه صفات حميدة ترشد أداءه فيما قُدر له من وظيفة خُلق من أجلها، وكذلك تزول به أمراض كثيرة تغشى النفوس وتسبب لها آلاما قد تبلغ بها مبلغ اليأس والقنوط، بل قد تبلغ درجة السعي للتخلص من الحياة، أو تُحْدث فيها قصورا وعاهات تقعد بها عن أداء المهام المطلوب من الإنسان أداؤها في مجمل حياته أو في تصرفاته اليومية.

ومن ذلك على سبيل المثال أن "ما يقلق الإنسان دوما وينغص حياته هو تفكيره الدائم في مصيره وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير أحبته وأقاربه. فتوهُّم الإنسانِ أن آلافا بل ملايينَ الملايين من إخوانه البشر ينتهون إلى العدم بالموت ذلك الفراقِ الأبدي الذي لا لقاء بعده سيذيقه هذا التصور ألما شديدا [ولكن حينما يؤمن بالآخرة فإنه] يكسب لذة روحية عميقة تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهده من نجاة أحبته وخلاصهم جميعا من الموت النهائي والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي منتظرين قدومه إليهم". إن عقيدةً تُحقق هذه المنفعة العظيمة لا يمكن إلا أن تكون حقا جديرة بأن يؤمن بها الإنسان.

وعلى سبيل المثال أيضا: فإن الإنسان في خريف العمر -وقد وهنت قواه وانقطع عطاؤه- قد يشيع فيه ذلك الشعور بأنه أصبح عالة على أهله ومجتمعه، وبأن حياته قد استنفدت أغراضها،

إن دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي كما أنها ليست ظرفا، لإظهار ما لا يحد من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارها، فلا بد أن يرسَل هذا الإنسان إلى عالم آخر. نعم، إن جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها.

وذلك ما من شأنه أن يجعله في حال من اليأس والقنوط والقلق النفسي البالغ، فتضيق عليه الدنيا بما رحبت، وتنقلب الحياة إلى عذاب أليم، وليس من منقذ من ذلك سوى الإيمان باليوم الآخر الذي يجعله يشعر بأنه مقبل قريبا على سعادة أبدية ولقاء بالأحبة، وكلما تقدم به العمر اقترب من ذلك المصير السعيد، فتزداد نفسه قوة يغذيها الأمل، وسعادةً يصنعها الشوق إلى المصير السعيد.

من ثمرات الإيمان بالآخرة

ومما يثمره الإيمان بالآخرة من منفعة ما يحدثه هذا الإيمان في النفس من الصبر وقوة التحمل، إذ لما تصيب الإنسان المصائب، فإن الإيمان بالآخرة هو الذي يقوي من عزمه، ويشد من أزره، إذ يعتقد أن ما أصابه يمكن أن يكون له ذخرا في دار الجزاء، ولا يمكن بحال أن يذهب سدى. وفي هذا الصدد يضرب النورسي مثلا بتجربته الشخصية فيما حصل له من مصائب بتعرضه للسجن والقهر والإهانة والاعتداء على ممتلكاته وبالأخص منها مؤلفاته، ويقول في ذلك: "أتحمل كل هذا الحزن والأسى بذلك الإيمان بالآخرة، رغم أنني ما كنت أتحمل أية إهانة وتحكّم من أي أحد مهما كان؛ إن نور الإيمان بالآخرة وقوّته قد منحني صبرا وجلدا وعزاء وتسلية وصلابة وشوقا للفوز بثواب جهاد عظيم"، ومثل هذا يحصل بالنسبة لكل مكروب وكل مضطهد ومظلوم وكل مصاب بإحدى مصائب الدنيا، فهؤلاء جميعا "ما إن يمدهم الإيمان بالآخرة بالعزاء والسلوان إلا وينشرحون فورا ويتنفسون الصعداء لما يزيل عنهم من الضيق واليأس والقلق والاضطراب".

ب- دليل المنفعة الاجتماعية

إن أول ما يثمره الإيمان بالمعاد من منفعة اجتماعية هو ما يتمثل في ترشيد العلاقات الأسرية، فهذه العلاقات كثيرا ما تتعرض إلى توترات شديدة بسبب التنازع على المكاسب الدنيوية، ورغبةِ كل طرف في الاستئثار بالمنافع على حساب الأطراف الأخرى، وذلك واقع مشهود عبر الزمن، فإذا ما استنار أفراد الأسرة بنور الإيمان بالمعاد والحساب فإن ذلك ما إن يحل بالبيت الأسري "حتى ينور أرجاءه مباشرة ويستضيء؛ لأن علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربطهم لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جدا، بل تقاس على وفق علاقات تمتد إلى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسعادة الأبدية، فيقوم عندئذ كل فرد باحترام خالص تجاه الآخرين".

وعلى نفس هذا النحو يفعل الإيمان بالآخرة فعله في العلاقات الاجتماعية العامة، سواء تلك العلاقات بين أبناء المدينة الواحدة، أو العلاقات بين أبناء البلد بأكمله، أو العلاقات بين الإنسانية جمعاء، "فإن كل مدينة هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها، فإن لم يكن الإيمان بالآخرة مسيطرا على أفراد هذه العائلة الكبيرة، فسيستولي عليهم الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية".

والبلاد بأكملها ليست إلا بيتا واسعا جدا، والوطن بأكمله هو بيت عائلة الأمة، فإذا ما شاع فيها الإيمان بالآخرة، فإن ذلك الإيمان سيفعل فعله الذي فعله في العلاقات الأسرية، وإلا طغت الأنانية التي تزن الأشياء بميزان دنيوي قصير، فتكون معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية، وحينئذ تتسمم الحياة الاجتماعية، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشباب بالسكر والعربدة، والأقوياء بالظلم والتجاوز، وتصبح حياة الجماعة حياة مضطربة بائرة، ولو وُزنت الأشياء بميزان أخروي طويل لكان لهذه العلاقات الاجتماعية شأن آخر من الاستقرار والإثمار.

ولا شك أن هذا المنهج الذي ارتآه النورسي في الاستدلال يستوجب على الدارس من العدل ما يجعله لا يقتصر في التقييم على القياس بمقاييس العقل المجرد الصارم في موازينه المنطقية، إذ هو قد وسع الاستدلال ليشمل مناطق القوى الروحية أيضا، وإلا فإننا قد نجد في استدلالات النورسي ما يستحق التعقيب والمراجعة، وكفى هذا المنهج حكمة أن يجد فيه كل مسلم طلبته مهما كان حظه من العلوم العقلية والمنطقية، وليس الأمر كذلك في الكثير إن لم يكن في الأكثر مما أُلف في العقائد الإسلامية. ■

(*) الأمين العام لمجلس الإفتاء الأوروبي - باريس / فرنسا.

المصادر

(1) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(2) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ت: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(3) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

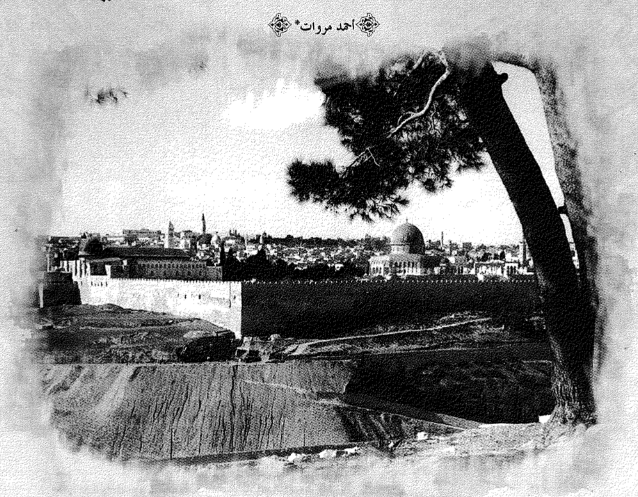
(4) اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(5) عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي الإيمان بالله وأثره في الحياة، ١٩٩٧.

(6) العلم يدعو للإيمان ــ مجموعة من المؤلفين، دار الكتاب العربي.

بصمات عثمانية على الأقصى الشريف

أحمد مروات*



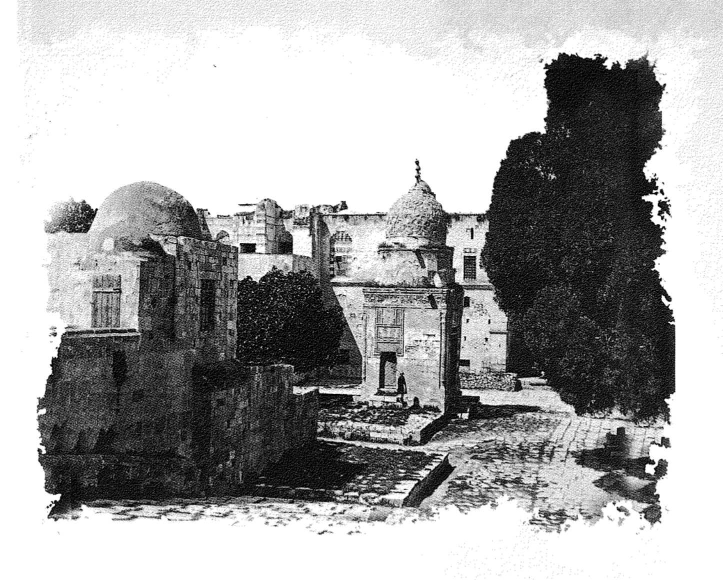
القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة. مسرح النبوات وزهرة المدائن وموضع أنظار البشر منذ أقدم العصور.

تاريخ بناء القدس يعود إلى اسـم بانيها وهو إيلياء بن أرم بن سـام بن نوح عليه السلام -إيلياء أحد أسماء القدس- وقيل إن "مليك صادق" أحد ملوك اليبوسيين -وهم أشهر قبائل الكنعانيين- أول من اختط وبنى مدينة القدس وذلك سـنة (٣٠٠٠ ق.م) والتي سميت بـ"يبوس". وقد عـرف "مليك صادق" بالتقوى وحب السلام حتى أُطلق عليه "ملك السلام"، ومن هنا جاء اسم مدينة "سالم" أو "شالم" أو "أور شالم" بمعنى دع شالم يؤسس، أو مدينة سالم. وبالتالي فإن أورشليم كان اسماً معروفا وموجودا قبل أن يغتصب الإسرائيليون هذه المدينة من أيدي أصحابها اليبوسيين.

وسماها الإسرائيليون أيضا "صهيون" نسبة لجبل في فلسطين، وقد غلب على المدينة اسم "القدس".

الدور التمهيدي في العمارة العثمانية

وقسّم العلماء تاريخ العمارة الإسلامية العثمانية إلى أدوار واضحة المعالم أعقبت الدور التمهيدي. أما الدور التمهيدي فيعُم الفترة الزمنية السابقة على أيام السلطان "أورخان" الذي تسلطن (١٣٢٥م). ويشمل الدور التمهيدي المنشآت التي أنشأها الأمير "أرطغرل بن سليمان شاه" (١١٩٨-١٢٨١)، حيث امتدت في زمنه رقعة الإمارة العثمانية بالفتوحات من مدينة "أَسْكيشَهر" إلى "كُوتَاهْيا". وبعد وفاته حكم الإمارة ابنه عثمان الأول (١٢٥٨-١٣٢٦)، حيث اتخذ من المدينة الجديدة "يَني شَهرْ" عاصمة



للدولة العثمانية. وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في "يني شهر"، ثم مرّت بأدوار عدة فشكل عهد أرطغرل وخليفته عثمان الأول مرحلة الدور المعماري العثماني التمهيدي الذي استمر حتى نهاية عهد عثمان الأول.

وبعد وفاة السلطان عثمان الأول خلفه ولده السلطان "أورخان". فبدأ دور معماري جديد، فتطورت العمارة الإسلامية العثمانية حين فُتحت مدينة "بورصة"، فاتخذها السلطان أورخان عاصمة للدولة العثمانية بعد العاصمة الأولى في مدينة "يني شهر". ثم فتح السلطان أورخان مدينة "إزْنيك" المسماة "نيقيا المقدسة" عند الروم. واستطاع السيطرة على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة.

ومع امتداد السلطنة العثمانية إلى المدن المفتوحة اتسع نطاق العمارة الإسلامية، وازدهرت فنونها، وأصبحت مدينة بورصة نموذجا رائعا للمدينة الإسلامية بكل مكوناتها المتطورة. وبعدما حقق السلطان أورخان انتصاراته في آسيا، قرر التوجه غربا نحو أوروبا لمتابعة الفتوحات، ونشر الحضارة الإسلامية بكل ما فيها من حسنات تحقق المصالح الإنسانية وتدفع المفاسد، حيث حقق آماله بفتح مدن الضفة الغربية لمضيق الدردنيل الذي يصل بين بحر مرمرة شمالا وبحر إيجة جنوبا.

القدس في ظل الدولة العثمانية

أبدى العثمانيون عناية فائقة بتطوير مدينة القدس، ابتداء بالتعميرات الضخمة التي أنجزها السلطان سليمان القانوني وانتهاء بالمباني التي شُيدت في عصر السلطان عبد الحميد الثاني. ورغم محاولات بعض المؤرخين طمس هذه الحقيقة فإنّ تلك المنشآت ما زالت قائمة حتى اليوم.

إن أقدم معلم تاريخي في القدس الشريف هو أسوار المدينة التاريخية التي تم بناؤها من قبل السلطان سليمان القانوني عام

(١٥٢٦م)، ويليها الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي بنيت في أماكن مختلفة من القدس وأبرزها الوقف الخيري "خاصكي سلطان" أو "التكية". وهي من أعظم المؤسسات الخيرية في القدس والتي قامت بإنشائها زوجة السلطان سليمان القانوني. والتكية تقدم الطعام لفقراء القدس والمحتاجين إلى يومنا هذا، حيث تقع على طريق الواد وفي الزقاق الممتد بين خان الزيت وعقبة التكية حيث تكية خاصكي سلطان كما عرفها أهالي فلسطين والقدس من مئات السنين.

في أول شهر كانون الأول من عام (١٥١٧م) وصل السلطان العثماني سليم الأول أسوار القدس ولم تكن هناك مقاومة. وخرج العلماء للقاء السلطان وأهدوه مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة، فقفز السلطان سليم من على فرسه وسجد سجدتين ثم قال: "الحمد لله الذي جعلني خادما لحرم أولى القبلتين".

وتعتبر فترة السلطان سليمان القانوني نجل السلطان سليم الأول، الفترة الذهبية بالنسبة لأسوار القدس، حيث أمر هذا السلطان بإعادة بناء أسوار المدينة من جديد. وكانت تلك خطة طموحة استلزمت مهارة عالية ونفقات باهظة. ولم يقم العثمانيون ببناء استحكامات معقدة كتلك سوى في أماكن قليلة أخرى. وبلغ طول السور الذي ما زال موجودا إلى الآن ميلين بارتفاع قرابة أربعين قدما. وأحاط المدينة إحاطة تامة وكان به أربعة وثلاثون برجا وسبع بوابات. وحينما انتهى بناء السور عام (١٥٤١م) أصبحت القدس محصنة لأول مرة منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

وأنفق سليمان القانوني أيضا مبالغ كبيرة في نظام المياه بالمدينة فبنيت ست نافورات جميلة وشقت القنوات والبحيرات، وتم تجديد بحيرة السلطان جنوب غربي المدينة وأصلحت قنواتها. وشهدت المدينة ازدهارا جديدا حيث تم تطوير الأسواق وتوسيعها.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تم تحويل القدس إداريا إلى متصرفية وضمت إليها "نابلس" و"غزة"، لزيادة عدد سكانها ولأهميتها الدينية. وكانت سلطة قاضي القدس ذات مدى متسع يشمل المناطق من غزة إلى حيفا.

لم يهمل السلطان سليمان الحرم فرممه بالفسيفساء خاصة الجزء الأعلى من الحائط الخارجي لقبة الصخرة وغلف الجزء الأسفل بالرخام. وتمت تغطية قبة السلسلة بزخارف جميلة. كما بنى سليمان القانوني نافورة بديعة للوضوء في الفناء الأمامي



للمسجد الأقصى وكما أيد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس. وتنازل السلطان عن حقه في رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل قراءة القرآن في قبة الصخرة لمدة عام واحد. وأصبحت الأوقاف التي تم إصلاحها مصدر عمل ودخل للأعمال الخيرية. وأنشأت زوجة السلطان القانوني تكية في القدس عام (١٥٥١م)، ومجمعا كبيرا يشمل مسجدا ورباطا ومدرسة وخانا ومطبخا يخدم طلبة العلم والمتصوفين والفقراء ويقدم لهم وجبات طعام مجانية. وقد شملت أوقاف التكية عدة قرى حتى وصلت منطقة رام الله.

فقد تم إعادة ترميم قبة الصخرة في عهد السلطان محمد الثالث والسلطان أحمد الأول والسلطان مصطفى الأول. وأصدر السلاطين فرمانات عديدة خاصة بالأماكن المقدسة. وكان الباشاوات ملزمين بحفظ النظام في منطقة الحرم والتأكد من سلامة الأماكن الدينية ونظافتها. وكانت الوقف تستغل في عائدات أعمال الصيانة وكانت الحكومة أيضا على استعداد لاقتسام النفقات إذا استدعى الأمر. وظلت المدينة في القرن السابع عشر تستحوذ على الإعجاب. وساد الأمن والسلام في كل أرجاء بلاد القدس الشريف. وقد زار الرحالة التركي "أوليا جلبي" القدس

عام (١٦٤٨م) ووجد -كما قال- أن هناك ثمانمائة إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس المجاورة ويتقاضون مرتبات، وكان هناك أيضا خمسون مؤذنا وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم، كما وجد أن الزائرين المسلمين ما زالوا يسيرون مواكبهم حول الحـرم ويؤدون الصلاة في المواقع المختلفة. وقال إن أروقة الحرم امتلأت بالدراويش من الهند وفارس وآسيا الصغرى، حيث كانوا يرتلـون القرآن طوال الليل ويعقـدون حلقات الذكر ويتغنون بأسماء الله الحسـنى على ضوء مصابيح الزيت الوامضة المتواجدة علـى طول الممرات ذات الأعمـدة. وبعد صلاة الفجر كانت تعقـد حلقات الذكر مرة أخرى في مسـجد المغاربة في الركن الجنوبي الغربي من الحرم. وكان هناك خمسمائة جندي تحت إمرة باشـا القدس وكانت أهم مهامهم الرئيسـية مرافقة قافلة الحج الذاهبة من دمشق إلى مكة المكرمة كل عام.

وقد نصّبت الدولة العثمانية على القدس حكاما من أهلها مما زاد في الاهتمام بتعميرها وترميم ما تلف من مساجدها وخاصة المسجد الأقصى وقد تم تعيين أربعة مفتين.

وحافظت القدس في العهـد العثماني على مكانتها المرموقة وظلت مركز جذب للمتصوفين والعلماء. والجدير بالذكر أنه كان عدد العلماء في المدينة في القرن الثامن عشر أكبر من عددهم في القرن السابع عشر كما اقتنى بعض العلماء مكتبات خاصة مهمة.

القدس وفن العمارة الإسلامية

العمارة الإسـلامية في القدس هي امتدادٌ للعمارة الإسـلامية العثمانية، والعمارة العثمانية حلقـة مهمة من حلقات العمارة الإسلامية عموما. نشأت العمارة الإسلامية -زمنيا- مع الهجرة النبوية وبناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، وتمتد حتى العصر الراهن، كما أن للعمارة الإسـلامية امتدادا جغرافيا واسعا يمتد من بلاد الملايو والبنغال وتايلاند والفيليبين شـرقا إلى الأندلس غربا وهذا الامتداد قديم.

وفي العصر الراهن تنتشـر المنشآت الإسلامية في كافة أنحاء المعمورة. ولكن وجود بعض المنشآت لا ينمّ عن هوية إسلامية ما لم ترافقها العادات والأذواق والثقافات الإسلامية. بدأ نشوء المدن الإسلامية ببناء المسجد وما يحيط به من مساكن ومنشآت؛ كالقلعة وسـبيل المـاء والحمام والقناطر والجسـور والمدارس والبيمارستانات والخانات والأسواق.

أصبحت المدينة الإسـلامية مميزة المعالم، واضحة الهوية بعد الهجرة النبوية، ثم تكاملت في عهود الخلفاء الراشدين، وازدهرت العمارة الإسـلامية في عهد الأمويين حيث اسـتفاد البناؤون المسـلمون من التطور العمراني الرومـي البيزنطي، وتجلى ذلك المزج بين الفنّ المعماري الإسلامي والفن المعماري البيزنطي في الجامع الأموي بمدينة دمشق، والجامع الأموي بمدينة حلب، وقبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس. ثم تطورت الفنون المعمارية الإسلامية في عهد العباسيين حيث انتشرت المدارس النظامية التي شيدها الوزير نظام الملك السلجوقي، ثم شُيدت المدرسة المستنصرية في بغداد في بداية القرن السـابع الهجري، فبلغت بغداد آنذاك درجة رفيعة معبرة عن محتويات العاصمة الإسلامية التي استفادت من المؤثرات المعمارية البيزنطية والساسانية والسلجوقية والهندية.

وبعد ذلك انتقلـت عاصمة الخلافة العباسـية إلى القاهرة التي أصبحت رمز العاصمة الإسـلامية، واسـتمرت على تلك الحال حتى فتحها السلطان سـليم الأول ونقل عاصمة الخلافة الإسـلامية إلى مدينة إسـطنبول سـنة (١٥١٧م). فتطور فن العمارة الإسلامية العثمانية حيث جمع بين فنون العمارة الإفريقية والآسيوية والأوروبية، وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في شكل متلازم مع تطور الدولة العثمانية واتسع نطاقها مع اتساع رقعة الدولة العثمانية. ■

(*) باحث وكاتب متخصص بالتاريخ العثماني / فلسطين.



فـي الأسـحار، وبيـن المحاريـب، فَتّـشْ عـن رجـال الطريـق... هـؤلاء لا يخذلـون، ولا ينكصـون... وإذا مـا توعَّـرَتْ الطريـق وطالـتْ واستوحشـت، فهـم المؤنسـون المسـاندون، وعنـك يـذودون، ومعـك كلّ صعـب يقهرون..!

***

أمام الفروسية الإسلامية

❁ أ.د. محمد عمارة * ❁

في مكة ظهر الإسلام سنة ١٣ ق.هـ سنة ٦١٠ م. ولأنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦).. فلقد كان المسلمون -دائما- يتركون لمن عاداهم حتى من المشركين -فضلا عن الكتابيين- حرية الاختيار، ويعلنون قول الله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩).. لأن الإكراه يثمر "نفاقا" لا "إيمانا"!

ومع هذا.. فعلى امتداد ثلاثة عشر عاما -هي عمر الدعوة النبوية بمكة- صب المشركون الوثنيون، بقيادة ملأ قريش وصناديد الشرك فيها، كل ألوان العذاب على الذين اهتدوا إلى الإسلام، وخاصة المستضعفين والفقراء والأرقاء.

ولقد عزل المشركون القلة التي آمنت -مع أهليهم- وحاصروهم في "شعب بني هاشم"، وقاطعوهم اقتصاديا واجتماعيا حتى أشرفوا على الهلاك، فاضطر عدد من المسلمين إلى الهجرة -مرتين- إلى الحبشة، خلال تلك السنوات، فرارا بدينهم وأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب.

ولقد تصاعد الحصار للدعوة، وزاد الاضطهاد للمؤمنين بها، حتى دُفعت القلة المؤمنة دفعا إلى الخروج من ديارهم بمكة.. فأخذوا يتسللون إلى المدينة المنورة (يثرب) بعد أن اهتدى نفر من أهلها (الأنصار) إلى دين الإسلام.

وعندما قرر ملأ قريش، وصناديد الشرك فيها توجيه الضربة القاصمة إلى رسول الإسلام وإمام دعوة التوحيد محمد بن عبد الله ﷺ... وأخذوا في المكر والتآمر.. وتقليب الخيارات: أيقتلونه؟ أم يحبسونه؟ أم يخرجونه من مكة؟! ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال:٣٠).. أذن الله ﷻ لنبيه

ورسوله بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد أن تعاقد سنة ١ ق.هـ مع الأنصار على إقامة الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة المنورة.. فهاجر إليها سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م، وأقام الدولة، التي ضمنت للدعوة وطنا، والتي تُساس بالدين، وتحرس هذا الدين.

لكن المشركين من قريش، وحلفائهم العرب واليهود لاحقوا المسلمين في مهجرهم الجديد، يريدون القضاء على دعوة الإسلام وعلى الدولة التي أقامها المسلمون لحراسة الإسلام.

وهنا.. أذن الله ﷻ للمؤمنين الذين فُتنوا في دينهم، وسُلبت منهم أموالهم، وأُخرجوا من ديارهم.. أذن لهم في القتال، ردا للعدوان المتواصل، ودفاعا عن الدين والوطن والدولة.. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).

وعلى امتداد سنوات الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ بالمدينة المنورة اضطر المسلمون إلى خوض العديد من المعارك والمواقع والغزوات، بعد أن فَرض عليهم المشركون هذا القتال -الذي هو كره لهم-.. والذي لم يكونوا يتمنون اللقاء فيه!.. "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله" (رواه الدارمي).

ومع عدالة "القتال الدفاعي" الذي اضطر إليه المسلمون.. ومع وقوفهم -في هذا القتال- عند حدود رد العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).. مع ذلك، فلقد وضع الإسلام لهذا "القتال الدفاعي" الضوابط والأخلاقيات التي صاغها رسول الله ﷺ "دستورا للفروسية الإسلامية" ظهر إلى الوجود، ووضع في الممارسة والتطبيق لأول مرة في تاريخ الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنا من الزمان:

فلا يجوز قتال قوم إلا بعد إعلامهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٨).

ولقد طبق المسلمون هذا التشريع القرآني.. "فما قاتل رسول الله ﷺ قوما حتى يدعوهم" (رواه أحمد والطبراني). والقتال -فقط- ضد المقاتلين.. ولا يتوجه إلى المسالمين غير المقاتلين من الكفار والأعداء.. ولذلك "نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والولدان" (رواه مالك).

وسَنّ الإسلام والمسلمون "دستورا" لأخلاقيات الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرنا؛ فحرّم الخيانة في المغانم، والسرقة من أموال المحاربين، وحرم الغدر حتى بالأعداء، أثناء القتال وحرم التمثيل بجثث القتلى، احتراما لكرامة جثث القتلى الأعداء! وجاءت أوامر الرسول ﷺ للمقاتلين تقرر معالم هذا الدستور: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلُّوا (تخونوا) ولا تغدروا ولا تَمْثُلوا ولا تقتلوا وليدا" (رواه مسلم).

كما أعطى هذا الدستور -دستور الفروسية الإسلامية- الأمن والأمان للرهبان والنساء والصبيان والشيوخ.. أي لكل من لا ينخرط في قتال المسلمين. بل أعطى هذه الحرمة حتى للبيئة والمزروعات، أي لكل ألوان "العمران".

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ﷺ -الخليفة الأول- الوصايا العشر لهذا الدستور، عندما قال لأمير جيشه "يزيد بن أبي سفيان" وهو ذاهب إلى الشام لتحريره من الغزاة الرومان:

"إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له.. وإني موصيك بعشر:

١. لا تقتلن امرأة،

٢. ولا صبيا،

٣. ولا كبيرا هرما،

٤. ولا تقطعن شجرا مثمرا،

٥. ولا تخرّبن عامرا،

٦. ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة،

٧. ولا تحرقن نخلا،

٨. ولا تفرقنّه،

٩. ولا تغلل،

١٠. ولا تجبن" (رواه مالك).

ولأن المسلمين قد جعلوا الحرب "جراحة مفروضة.. ومكروهة" ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).. فلقد وقفت حصيلة قتلى كل الغزوات -على عهد رسول الله ﷺ- تلك التي هُزم بها العدوان.. وانتصر بها الإسلام -عند ٣٨٦ قتيلا- منهم ١٨٣ شهيدا مسلما.. و٢٠٣ هم قتلى المشركين..!! بينما أحصى الفيلسوف الفرنسي "فولتير" (١٦٩٤-١٧٧٨م) ضحايا الحروب الدينية النصرانية بين الكاثوليك والبروتستانت -أي داخل النصرانية الأوروبية- فقال: إنهم عشرة ملايين أي ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



الأبعاد الإنسانية في الأعمال الخيرية

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

أهم ما يميز العمل الخيري الإسلامي هو أنه "إنساني" يتوجه إلى جميع بني آدم ليسهم في تحقيق معنى عالمية الرسالة الإسلامية، ويبرهن بالفعل -وليس بالقول فقط- على أن خاتم الأنبياء محمد ﷺ أرسله الله "رحمة للعالمين".

ولهذا فإن العمل الخيري الإسلامي مقصد عام وثابت من مقاصد الشريعة، وأعلى مراحله هي العالمية التي هي أيضا أعلى مراحل تحقق المقاصد العامة للشريعة.

هناك رؤى تختزل العمل الخيري الإسلامي في صيغة مساعدات إغاثية وقتية، وتقصره على فئة من الناس دون غيرها. ولكن هذه الرؤى غير صحيحة، والصحيح هو ما توضحه مقاصد العمل الخيري في إطار النظرية العامة للمقاصد الشرعية. هنا نقدم محاولة لبيان مقاصد العمل الخيري التي تنقله إلى حيز التطبيق العملي، بعد أن أوضحنا في المقال السابق بمجلتنا الغراء "حراء" كيف أن العمل الخيري مقصد عام وثابت من المقاصد العامة للشريعة.

مقاصد الخير الإسلامي

للعمل الخيري الإسلامي أربعة مقاصد هي: الحرية، والتمدين، والسلم الأهلي، ومحاربة الفقر. وإليك فيما يلي بعض التفصيل لكل مقصد من المقاصد الخمسة للعمل الخيري التي اجتهدنا في استنباطها، وبيان صلة كل منها بالعمل الخيري ذاته باعتباره



مقصـــدا عاما، وبيان صلـــة العمل الخيري بمقاصـــده هو ذاته.

١ – مقصد الحرية

هو أول مقاصد العمل الخيري الإسلامي وأعلاها منـــزلة. ففي مقدمـــة الأهداف التي يتوجه إليها العمل الخيري أن يســـهم في "تحرير" النفس الإنســـانية من الأغلال التي قد تكبلها لسبب أو لآخر، وتعوق حركتها، وتهدر طاقاتها. بعض هذه القيود معنوي ينتج عن ارتكاب الذنوب والآثام، وبعضها مادي ينتج عن حب المال وتمكن شـــهوة التملك من الإنسان، وبعضها سياسي ينتج عن الحروب وصراعـــات القوة. ونتيجة لتلك الأســـباب فإن بعض بـــني آدم تقضي عليهم الظروف الاجتماعية والسياســـية والاقتصادية التي يعيشونها أن تكون حريتهم مقيدة معنويا ومنهم العصـــاة والمذنبون، أو مقيدة ماديا، ومن هؤلاء: الرقيق والفقراء واليتامى والمســـاكين والأسرى والجهلة والمرضى والمدينون؛ وفي جميع هذه الحالات يجب شرعا المساعدة في تحريرهم ورفع الإصر عنهـــم وتحطيم الأغلال التي وضعت عليهـــم؛ كي يكونوا محلا صحيحا للإيمان، وكي يكونوا قادرين على اســـتقبال التكاليف الشرعية وأداءها كما يريد الله ﷻ؛ لأن غير الحرّ يكون غير قادر قدرة الحر على إقامة التكاليف الشـــرعية –أو هو ليس مثله على الأقل– ولهذا يريد الإسلام أن يكون الإنسان حرا أولاً، ثم يخاطبه بالأحكام الشرعية ويكلفه بها.

ولسائل أن يسأل: كيف يكون مقصد الحرية من مقاصد العمل الخيري؟ وكيف يسهم العمل الخيري في تحقيق هذا المقصد؟ ونجيب فنقول: دلت آيات القرآن الكريم على أن من أعظم القربات تحرير الأرقاء، ومن ذلك ما جاء النص عليه في ســـورة البلد وعبرت عنه بـــ"فك رقبة". ولسنا مع قصر معنى فك الرقبة على " تحرير الرقيق" أو "عتق العبيد والإماء" كما ذهب أغلب المفسرين. فسورة البلد مكية، ومن الأهداف العامة للسور المكية أنها تمهد لاستقبال العقيدة الجديـــدة، وتهيئ النفوس كي تثبت فيها هذه العقيدة على صفحة نقية. وضمن هذه الغاية نعت آيات السورة على بعض كفار مكة الذين أنفقوا أموالهم الكثيرة للمباهاة والمفاخرة ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٦)، ظنا منهم أن مجرد إنفاق المال الوفير يضمن لهم الفوز والنجاة. ولكن لما لم يكن هذا الإنفاق متضمنا "فك الرقاب" خاب ســـعيهم. وعبر القرآن عن هكذا إنفاق بـــ"الإهلاك" إظهارا لعدم الاكتراث. والنتيجة هي أن من أنفق ماله دون أن يخصص جزءا منه للمشـــاركة في فك الرقاب؛ أي تحريرها، فلن يكون من الناجين.

يقول الإمام محمد عبده في تفسيره: "ورد في فضل العتق ما بلغ معناه حد التواتر، فضلا عما ورد في الكتاب، وهو يرشد إلى ميل الإسلام إلى الحرية، وجفوته للأسر والعبودية".

فكّ الرقبة بالمعنى الشامل

ونضيـــف إلى ما ســـبق أن عموم دلالة "فـــك الرقبة" لا يقتصر على تحريرها من أســـر العبودية والرق بالمعنى الاصطلاحي الذي قصده أغلب المفســـرين والفقهاء –وكان أكثر الرق قديما بسبب الحروب– وإنما يشمل أيضا فك الرقبة من كل ما يقيدها؛ فكها من قيد الجهل؛ فالجهل يقيد حرية الإنسان، كما يقيد الرق حريته. وفك الرقبـــة يكون أيضا من قيد المرض؛ فالمرض قيد على حرية الإنســـان وحركته، وقد يقعده أو يمنعه من الاستمتاع بكثير من الحريات التي لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا بها. ويكون فك الرقبة من قيد الديون؛ فالديون تقيد الحرية أيضا وتستذل المدين. وأخيرا وليس آخرا: يكون فك الرقبة من قيود الاســـتبداد التي تمارسها السلطات الطاغية؛ سواء كانت سلطة التقاليد والآباء الأولين أو الحكام المتجبرين أو الخرافات والأوهام والأســـاطير؛ التي تستذل الكبير وتســـترذل الصغير. وتلك هي أهـــم الحالات الاجتماعية التي يكون بعض بني الإنســـان عرضة لها في كل زمان ومكان.

وقد صنفت آيات ســـورة البلد الأعمال التي تستهدف فك الرقاب ضمن "أعمال الخير" الطوعية التي يقوم بها الإنسان باختياره وفطرته، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:١٠)؛ أي طريق الخير الذي يشمل مثل الأعمال المذكورة، وطريق الشر المقابل لذلك. ولما كان الإســـلام متشوفا إلى الحرية، فقد جعل المســـارعة في "فك الرقبة" بالمعنى الواسع الذي ذكرناه من أفضل الأعمال الخيرية الطوعية؛ ولهذا أكثر المســـلمون على مر التاريخ من بذل الصدقات، وتخصيص قســـم معتبر من ريوع الأوقاف للإنفاق على التعليم والعلاج وعتق الرقيق وافتداء الأسرى من يد الأعداء حتى لا يصيروا رقيقا، ومساعدة أصحاب المغارم والديون.

ونجـــد في آراء واجتهادات علماء الســـلف الكبار من أمثال الإمـــام أبي حنيفة ما يدل على إدراكهم العميق للحرية باعتبارها جوهر الرسالة الإسلامية إلى الإنسانية كلها؛ فمن غير الجائز عند أبي حنيفة –مثلاً– الحجر على الســـفيه، والحجر نوع من أنواع تقييد حرية الإنســـان في التصرف. ويعلـــل أبو حنيفة ذلك بأن الحجر إهدار لآدمية هذا السفيه! ويقول: إن الحجر عليه "إلحاق له بالبهائم"، والضرر الإنســـاني الذي يترتب نتيجة الحجر عليه

أكبر بكثير من الضرر الذي يترتب على ســوء تصرفه في أمواله، ولا يجوز دفع الضرر الأقل بضرر أكبر منه.

٢- مقصد التمدين وعمارة الأرض

يســهم العمل الخيري في تحقيق درجة أرقى من التمدن الإنساني ورفع كفاءة المجتمعات في إعمار الأرض. ويأخذ إسهام العمل الخيري في تمدين المجتمعات صورا متعددة: منها ما هو مادي في شكل تبرعات ومساعدات تعين غير القادرين على تحسين مستوى معيشتهم، ولا تتركهم نهبا للمرض أو للجهل أو للفاقة والعجز، ومنها ما هو غير مادي في شكل مساهمات معرفية وعلمية تهدف إلى تنوير المجتمع ورفع قــدرات أبنائه بصفة عامة، وغالبا ما كان تمويل إنتاج العلم والمعرفة على حســاب العمل الخيري تحديداً في الاجتماع السياسي الإسلامي إلى ما قبل نشوء الدولة الوطنية الحديثة.

ويمكننا القــول باطمئنان: إن أغلبية صور الأعمال الخيرية التي أسهمت في "تمدين" المجتمعات الإسلامية، وفي بناء حضارتها الشــامخة، قد تجلت في "نظام الوقف" في معظم مراحل تاريخ هذه المجتمعات. فمن خلال الأوقــاف وبتمويل منها نشأت أغلبية مؤسسات العلم والثقافة؛ داخل المســاجد وخارجها في صورة مــدارس ومعاهد، وكليات جامعية للمتخصصين، ودروس ومكتبات عامة. ومن بين أولئك الذين تلقوا تعليمهم في تلك المؤسسات الخيرية تخرج رواد كثيرون في مجالات علمية وتطبيقية متنوعة، شملت الطب والهندسة والكيمياء والزراعة والصناعة والفلك والصيدلة، إلى جانب مختلف الفنــون والآداب والمعارف النظرية الأخرى.

العمل الخيري الإسلامي ليس "مرحلة أولية" من مراحل تطور العمل الاجتماعي الطوعي المعني بالشأن العام، وإنما هو ركن أصيل في بناء المجتمع وفي تمدينه وبناء تقدمه العلمي والمعرفي، كما أنه يتسع معناه لمختلف المراحل التي يشيرون إليها. وقد أثبتت التجربة التاريخية أن تطبيقاته تشــمل مختلــف مجالات الحياة، بما في ذلك الأعمال الإغاثية -ولها أهميتها التي لا يجادل فيها أحد- والأعمال التنموية، وأنشطة التأهيل والتمكين، والدفاع عن الحقوق، وتحصيل الحقوق الأساسية، والدفاع عنها. وثمة العديد من الأدلة والبراهين التي تثبت صحة ما نذهب إليه. فالمدارس والمستشفيات والمشاغل ومراكــز التدريب المهــني، ودور الإيواء، وكثير من الأشــغال العامة (الطرق والقناطر وقنوات المياه والإضاءة...إلخ) كل ذلك أســهمت الأعمال الخيرية الإسلامية في تشــييده وتحول العمل الخيري في هذه المجالات وفي غيرها إلى نظام مؤسســي متكامل الأركان إداريا واقتصاديا وقانونيا، وتجســد في "نظام الوقف".

٣- مقصد السلم الأهلي

يعزز العمل الخيري حالة الســلم الأهلي بين الفئات الاجتماعية المختلفــة بطرق متعددة، لعل من أهمهــا أن حصيلة المبادرات الخيرية تشكل شــبكة من العلاقات التعاونية، وتدعم روح الأخــوة والتراحم والتعاطف في الاجتماع السياسي الإسلامي بصفة عامة. وإلى ذلك أشار العلامة ابن عاشــور حيث يقول: "عقود التبرعات قائمة على أســاس المواساة بين أفراد الأمة، الخادمة لمعــنى الأخوة؛ فهــي مصلحة حاجية وتحســينية جليلة، وأثر خُلُق إسلامي جميل؛ فبها حصلت مساعفة المعوزين وإغناء المقترين وإقامة الجم من مصالح المســلمين".

وإذا كان الإنســان "ذئبــا" لأخيه كما يرى بعض فلاســفة النهضة الأوربية الحديثــة مثل "تومــاس هوبز" مثــلا، فهو أخ للإنســان في الرؤية الإســلامية؛ يســعى لإسعاده ويتعــاون معه علــى عمل الخير، ومحرمٌ عليــه أن يتعاون معه على الشــر أو الإضرار بالغير. قــال تعــالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْــوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَــى الإِثْــمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢).

وقد تكررت وصايا الرســول ﷺ التي تحض على فعل الخير لنفع الناس -مطلق الناس- قال ﷺ: "خير الناس، أنفعهم للناس" (رواه الطــبراني والضياء). وقال: "كل معــروف صدقة" (رواه البخاري). كما حض النبي على المبادرة بفعل الخير ولو كان شــيئا بسيطا جدا، ومن ذلك قوله ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شــيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق" (رواه مســلم)، وقوله: "اتق النار ولو بشق تمرة"(متفق عليه)، واعتبر الرسول ﷺ أن من الصدقات التبسم في وجه

مقصد الحرية هو أول مقاصد العمل الخيري الإسلامي وأعلاها منزلة. ففي مقدمة الأهداف التي يتوجه إليها العمل الخيري أن يسهم في "تحرير" النفس الإنسانية من الأغلال التي قد تكبلها لسبب أو لآخر، وتعوق حركتها، وتهدر طاقاتها.

الآخر، فقال: "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة" (رواه الترمذي)، وغير ذلك كثير من الأحاديث الشريفة التي تركز على المبادرة بعمل الخير بشكل عام، وتنبّه إلى ضرورة أن ينتشر على أوسع رقعة ممكنة من النسيج الاجتماعي عبر المبادرات التي يستطيع أن يقوم بها كل إنسان مهما بلغ ضيق ذات يده؛ إذ أرشد ﷺ إلى كثير من المبادرات الخيرية قليلة التكلفة (شق تمرة)، أو التي لا تكلف شيئا ماديا يذكر (وجه طلق) أو (البسمة الصدقة)؛ وذلك لما لهذه المبادرات الخيرية المتنوعة في قيمها المعنوية والمادية من تأثير كبير في إشاعة جو من الطمأنينة والسلام والأمن بين أعضاء المجتمع مهما اختلفت مواقعهم الوظيفية، ومهما تباينت مراتبهم الاجتماعية. ومن ذلك ومن مثله عرفنا أن من مقاصد العمل الخيري الإسهام في تعزيز السلم الأهلي، وتقوية شبكة العلاقات التعاونية بين أبناء المجتمع.

ويسهم العمل الخيري في تحقيق مقصد "السلم الأهلي" بصور أخرى متعددة، منها: المسارعة إلى إزالة نقاط التوتر من المجتمع، ودفع الحراك الاجتماعي.

بالنسبة للمسارعة إلى إزالة نقاط التوتر من المجتمع، نجد أن العمل الخيري يسهم فيها بشكل مباشر؛ وذلك في أوقات الأزمات التي قد يتعرض لها المجتمع، أو عند وقوع الكوارث والأوبئة التي قد تصيب فئة أو أكثر من فئات المجتمع. وهنا تظهر أهمية الأعمال الخيرية الإغاثية التي تقدم المساعدات العاجلة من كساء وغذاء ومأوى وإسعافات أولية وما شابه ذلك.

ويحدث العمل الخيري أثره الإيجابي ليس فقط في الوسط الاجتماعي الذي يقدم له الفرد مبادرته الخيرية، وإنما على معنويات فاعل الخير نفسه؛ إذ يكون عمل الخير سببا من أسباب سعادته في الحياة، وتزكية نفسه وانشراح صدره وتقوية حبه للآخرين، والسعي في جلب النفع لهم، ودفع الأذى عنهم.. إلى جانب أن عمل الخير يشعر فاعله بمكانته ودوره في محيطه الذي يعيش فيه، ويدعم إحساسه بأن لديه مقدرة -حتى وإن كانت محدودة- على مواجهة مشكلات مجتمعه والإسهام في إصلاحه.

وأما عن أثر العمل الخيري في دفع الحراك الاجتماعي، فيتجلى بشكل واضح في نظام الوقف. وقد كشفت التجربة الحضارية الإسلامية عن أنه كلما زاد العمل الخيري وتشعبت موارده وتعددت مؤسساته والخدمات العامة التي توفرها، قل نطاق الاستبعاد الاجتماعي لبعض الفئات بسبب الفقر أو العجز، وتراجعت بالتالي فرص القلاقل والنزاعات الأهلية والانقسامات الأهلية، وتعزز الاستقرار، وتهيأت فرص الإبداع والابتكار.

٤- مقصد محاربة الفقر

العمل الخيري بمختلف صوره هو أحد السياسات الاجتماعية التي تستهدف القضاء على الفقر، وتسعى بشكل دائم ومستمر لتجفيف منابعه، وإخراجِ من يدخل في دائرته، وإعادةِ إدماجه في دورة العملِ والإنتاج؛ كي يصبح معتمِدا على ذاته، مسهما في بناء مجتمعه وفي مساعدة غيره، خاصة أن علة الفقر تصحبها علل أخرى كثيرة مثل الجهل والمرض والبطالة والجريمة. وهي علل ذات آثار سلبية، تدمر قدرات المجتمع، وتعوقه عن التطور والنمو.

ويسعى النظام الإسلامي عامة إلى اجتثاث الفقر من المجتمع بوسائل متعددة، وكلما نبتت بوادر جديدة للفقر -وهذا أمر يتكرر ولا يمكن تحاشيه- أسرع إلى محاصرته وتجفيف منابعه. والمثل الأعلى للمجتمع الإسلامي من هذه الزاوية هو أن لا يكون فيه فقراء.

العمل الخيري الإسلامي ليس "مرحلة أولية" من مراحل تطور العمل الاجتماعي الطوعي المعني بالشأن العام، وإنما هو ركن أصيل في بناء المجتمع وفي تمدينه وبناء تقدمه العلمي والمعرفي..

إن أول مصرف للزكاة المفروضة هم "الفقراء والمساكين" بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(التوبة:٦٠). ووردت الزكاة في ٣٢ موضعا في القرآن الكريم، منها ٢٧ موضعا جاءت مقرونة بالصلاة، ووردت في أكثر من ٨٠ موضعا إذا أضفنا إلى ذلك المصطلحات الأخرى التي تشترك معها كليا أو جزئيا في المعنى مثل النفقة والصدقة التي استعملت للحض على معالجة مشكلة الفقر على وجه التحديد.

إلى جانب الزكاة المفروضة حثت شريعة الإسلام على المبادرة بالأعمال الخيرية الطوعية للإسهام في مواجهة مشكلة الفقر، ومن أهم صور هذه الأعمال الخيرية: الصدقة التطوعية والوقف والهبة والانتفاع بفائض رؤوس الأموال والمنح التي تعطى لغير القادرين

بدون تحصيل فوائد منهم (القرض الحسن). ومن ذلك كله عرفنا أن محاربة الفقر مقصد أساسي من مقاصد العمل الخيري. وتتجلى في ميدان مكافحة الفقر الجدوى الاجتماعية والاقتصادية للعمل الخيري الذي يثاب فاعله بالأجر الجزيل من رب العالمين.

ويمتلئ تراثنا الفقهي بمطارحات عميقة حول مشكلة الفقر المسائل والمشاكل التي ترتبط به؛ بدءا بتعريف الفقر ما هو؟ مرورا بكيفية قياسه وما أهم مؤشراته، وكيفية مواجهته، وصولا إلى مناقشات فلسفية عميقة حول المفاضلة بين الغنى والفقر، وأيهما بحاجة إلى الآخر: الغني إلى الفقير، أم الفقير إلى الغني؟ أم إن كلا منهما بحاجة إلى الآخر؟

ومن الملفت للانتباه أن ما تتناوله البحوث والدراسات الاقتصادية الحديثة تحت عنوان معضلة قياس الفقر، وكيفية تحديد "خط الفقر"، قد تناولها فقهاء الإسلام منذ قرون طويلة خلت. فالحسن البصري وأبو عبيدة مثلا كانا يحددان ما نسميه اليوم "خط الفقر" برصيد نقدي مقداره أربعون درهما، واستدلا على ذلك بقوله ﷺ: "لا يسأل رجل أوقية أو عدلها إلا سأل إلحافا" (رواه أحمد والنسائي). وذهب الحنفية إلى أن الفقير هو من يملك أقل من نصاب الزكاة؛ ربع أو خمس النصاب كما قال البصري وأبو عبيدة، والمسكين عندهم هو من لا يملك شيئا. أما الطبري فيرى أن الفقير هو المحتاج المتعفف. وجمهور المالكية والشافعية والحنابلة يقولون: إن معنى الفقر مرتبط بمستوى الكفاية، ومدى تلبية احتياجات الإنسان الأساسية.

وثمة من قدماء العلماء من اهتم بتحليل ظاهرة الفقر تحليلا اجتماعيا واقتصاديا؛ بل ونجد في كتب التراث بحوثا شبه ميدانية تتضمن معلومات وآراء تساعد على فهم الأبعاد المختلفة التي تنطوي عليها مشكلة الفقر، وكيف تؤثر على بعض الفئات وخاصة العلماء والمثقفين، وكيف تؤثر أيضاً على مجمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

وسائل محاربة الفقر

وللفقر صلة وثيقة بالقهر، وليس فقط بالجهل وبالمرض. ولهذا كان "التصدي للفقر" في مقدمة أولويات العمل الخيري في الممارسة الاجتماعية في الاجتماع السياسي الإسلامي، وتجلى ذلك بأوضح ما يكون في نظام الوقف الإسلامي عبر أغلب مراحله التاريخية. وبفضل تراكم الخبرات الاجتماعية في ممارسة العمل الخيري تبلورت أربع وسائل لتنظيم إسهام العمل الخيري في محاربة الفقر، واختصت كل وسيلة بشريحة أو أكثر من شرائح الفقراء.

١-المساعدات النقدية التي تقدم للفقراء موسميا، وخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية، أو تقدم لهم في أوقات حاجتهم إليها.

٢-المساعدات العينية التي تشمل: الطعام، والماء، والكساء، وبعض أدوات الإنتاج البسيطة، والدواء، والمأوى أحيانا، وهي تقدم للفقراء والمعوزين موسميا أيضا أو في أوقات حاجتهم إليها؛ شأن المساعدات النقدية.

٣-المساعدات المؤسسية؛ ونقصد بها تلك المساهمات التي يقوم بها فاعلو الخير من أجل دعم أو تمويل أو إنشاء مؤسسات تقدم خدمات عامة مثل: المساجد والمدارس والمستشفيات ومستوصفات العلاج ودُور الرعاية الاجتماعية التي تقدم خدماتها للأيتام والعجزة والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة.

٤-المساعدات الفنية، وتشمل ما يتطوع به فاعلو الخير من خبرات واستشارات ومشاركات يقدمونها بدون أجر مادي، ويسهمون بها في تدريب وتأهيل الراغبين في العمل ولكنهم غير قادرين على تحمل نفقات التأهيل المهني اللازم لدخولهم سوق العمل.

وجرى تمويل هذه المنظومة الخيرية عبر طرق متعددة منها: الزكاة والوقف والوصايا والهبات الخيرية والنذور، والكفارات، والصدقات التطوعية الأخرى. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

المصادر

(١) الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية: دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق، لمحمد سليم العوا (محرر)، مؤسسة العرفان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٦.

(٣) الأوقاف والسياسة في مصر، لإبراهيم البيومي غانم، دار الشروق، القاهرة،

(٤) أعمال ندوة "مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي"، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٥) إسهام الوقف الإسلامي في الإدارة المتكاملة لمصادر المياه، في: المجلة الاجتماعية القومية، إبراهيم البيومي غانم، االقاهرة ، العدد:٢، المجلد: ٤٤، مايو ٢٠٠٧.

(٦) مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر بن عاشور، مكتبة الاستقامة، تونس، ط:١، ١٣٦٦هـ.

(٧) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، لنبيل صبحي الطويل، كتاب الأمة، قطر، ط٢، ب ت، ٧٥.

(٨) شبهات حول الإسلام، لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٩) الاكتساب في الرزق المستطاب، لمحمد بن الحسن الشيباني، تلخيص محمد بن سماعة، هدية مجلة الأزهر - جمادى الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

(١٠) الفلاكة والمفلوكون، لشهاب الملة والدين أحمد بن علي الدلجي، تقديم: زينب محمود الخضيري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

السِّلم في الإسلام

مصدره وضماناته



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

يقول الله ﷻ في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(البقرة:٢٠٨)

هذه دعوة صريحة واضحة من الله ﷻ، موجهة إلى عباده المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم بعضهم مع بعض على أساس من البر والسلم. وجاء التعبير عن ذلك بكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ الدالة على الأمر بالتوجه إلى هذا المبدأ الإنساني الشامل، بطواعية ورغبة ذاتية وقناعة داخلية.

ولكن لماذا جاء الأمر موجَّها إلى المؤمنين دون غيرهم؟ لماذا لم يقل مثلا: يا أيها الناس ادخلوا في السلم كافة؟

والجواب: أن الإنسان -بمقتضى ما رُكِّب فيه من الرعونات والأنانية وحب الأثَرة والخضوع للأهواء- ميّال إلى التنافس مع الآخرين وإلى الأثرة وحب الانتصار للذات. وهي في مجموعها طبائع تبعث على التصادم، وتوتّر العلاقات، والخصام وسفك الدماء، بدلا من التآلف والمسالمة والسير في طريق التعاون والإيثار. وهو ما قد تنبأت به الملائكة عندما قالوا لله ﷻ، فيما قص علينا البيان الإلهي من كلامهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة:٣٠)

فما الذي يذيب في كيان الإنسان هذه الرعونات، وما الذي يحيل مشاعر الأنانية في كيانه إلى غيرية، ويحيل الأثرة إلى إيثار، والخصام إلى ألفة، والتصادم إلى مسالمة وتعاون؟

إن الذي يقضي على ذلك كله في كيان الإنسان، يقظةُ الفطرة الإسلامية بين جوانحه، ولن تستيقظ هذه الفطرة بين جوانحه ولن تعمل عملها في القضاء على تلك الطباع إلا بنور من الهداية الإسلامية. فمن لم يكن قد استضاء كيانه العقلي والوجداني بعدُ بقبس وهاج من هذا النور، هيهات أن ينقاد لمن يدعوه إلى الدخول في ساحة السلم مع الآخرين، متخليا عن رعوناته وعصبيته وأهوائه.

فمن أجل ذلك توجه الخطاب الرباني الآمر بالدخول مع الآخرين في ساحة السلم هذه، إلى المؤمنين بالله دون غيرهم. ومن المعلوم أن الإيمان بالله أخص من الإسلام. فكل من آمن بالله تعالى لابدّ أن يكون مسلما له، ولكن ليس كل من كان مسلما لله في ظاهره مؤمناً بالله -بالضرورة- في باطنه، إذ قد يكون منافقا.

غير أن فينا من قد يسأل: فما هو مصدر تأثير الاستسلام الداخلي لسلطان الله ووحدانيته في النفس، على مدّ رواق السلم الخارجي بين الناس بعضهم مع بعض؟

والجواب: أن من عرف الله إلهاً واحدا متصفا بكل صفات الكمال منزها عن كل صفات النقصان، عرف نفسه عبدا مملوكا له ﷻ.

فإذا استقرت هذه المعرفة في وعي الإنسان ووجدانه، تهذب كيانه وغاضت رعوناته وغابت أنانيته في ضرام خشيته وتعظيمه لمن هو عبده ومملوكه.. وتلك هي التزكية التي يركز عليها كثيرا البيان الإلهي في القرآن، بأسلوب الأمر آناً، وبأسلوب المدح لمن اشتغلوا بتزكية نفوسهم آناً آخر.

إن صاحب هذه المعرفة المستقرة في عقله والمهيمنة على وجدانه، يصبح رباني التصرف والسلوك، فلا يقوم ولا يقعد ولا يعطي ولا يأخذ ولا ينطق ولا يسمع إلا بالله ﷻ، لأنه على يقين تام بأنه كتلة ضعف وعجز وذل وفقر، لا يتأتى منه شيء، ولكنه بالمدد

الإلهي يغدو قادرا على كل شيء، وبالمدد الإلهي يتقلب في أعمال السوق وتجاراتها وصناعاتها، وبالمدد الإلهي يعقل وينطق ويبصر ويسمع. ولعل هذا من بعض معنى كلام الله في الحديث القدسي: ".. وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن استعاذ بي لأعيذنه" (رواه البخاري).

فلنتأمل في حال هذا الإنسان الرباني ونظره إلى عباد الله وطريقة معاملته لهم، وهو يقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، وهو يقرأ أو يسمع حديث أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" (رواه أبو يعلى والبزّار). لا ريب أنه ينظر إلى المؤمنين المستقيمين من عباد الله نظرة توقير وحب، ويعطيهم من نفسه وإمكاناتها كل عون، وينظر إلى الفاسقين والتائهين والضالين -على اختلاف فئاتهم- نظرة إشفاق ورحمة، ويذهب في نصحهم بدافع من الرحمة بهم والغيرة عليهم كل مذهب. فإن هم استجابوا فرح باستجابتهم، وإن هم أعرضوا عنه وركبوا رؤوسهم دعا الله بالهداية لهم.

ولقد كان أول وفد وَفَدَ إلى رسول الله من الحبشة ليعلن أفرادُه تجديدَ إيمانهم بالله ووحدانيته ورسله، من هؤلاء الربانيين الذين ينظرون إلى عباد الله -أيا كانوا- هذه النظرةَ.. فقد أقبل إليهم المشركون بعد خروجهم من عند رسول الله، ساخرين شاتمين، وقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركبا أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم! فقالوا: "سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً" (رواه ابن إسحاق). ولو أن رجال هذا الوفد تلقَّوا سخرية المشركين وشتائمهم، بطبائعهم ومشاعرهم البشرية بعيداً عن الاصطباغ بحقيقة العبودية لله، لبادلوهم الشتائم بمثلها بدلاً من السلام الذي قابلوه به. ولتحكمتْ بهم حظوظ النفس وعوامل الانتصار للذات.

الخلق عيال الله

ولقد ذكروا في سيرة العالم الرباني الجليل سيدي الشيخ معروف الكرخي، أنه كان يسير ذات يوم مع ثلة من تلاميذه على شاطئ دجلة، فرأى أحدهم في داخل نهر دجلة سفينة عليها ثلة من الشباب يقصفون ويلهون، فقال للشيخ: يا سيدي ألا ترى إلى هؤلاء الفاسقين الضالين، ادع الله عليهم. فرفع الشيخ يده قائلا: اللهم كما أدخلت السرور على أفئدتهم في الدنيا فأسألك أن تدخل السرور على أفئدتهم في الآخرة أيضا. إنه لم يكن ينظر إلى أولئك الذين كانوا يمارسون المجون واللهو، بعين بشريته التي من شأنها أن تخلط الانتصار لدين الله بالانتصار للنفس ورعوناتها وأنانيتها، ولكنه كان ينظر إليهم بمنظار عبوديته لله خالصة عن الشوائب.. وحقيقة العبودية لله رَحِمٌ بينه وبين الناس جميعا على اختلاف توجهاتهم، فكان الشأن في هذه الرحم أن تبعثه على الرحمة بهم والشفقة عليهم، ومن ثم توجه إلى الله لهم بهذا الدعاء. وهو -كما نلاحظ- دعاء لهم بالهداية والمغفرة، لأن الله لن يدخل على أفئدتهم السرور في الآخرة إلا لأنه قد هداهم وعفا عنهم في الدنيا.

أرأيتم إلى هذا السِّلم الذي انبثق من إيمان المؤمنين الصادقين بربوبية الله الفرد الصمد لهم، ومن ثم بعبوديتهم لله ﷻ، فنظروا إلى الأسرة الإنسانية كلها من خلال قول رسول الله في الحديث الذي سبق ذكره: "الخلق كلهم عيال الله، فأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله"، فطهرت قلوبهم بذلك من الشحناء والبغضاء والعصبية للذات، وغدت بذلك وعاء لمحبة الله ﷻ، ثم تفرعت عن جذع هذه المحبة القدسية فروع لا حصر لها من محبة عباد الله والشفقة عليهم والرأفة بهم... أقول أرأيتم إلى هذا السِّلم الذي انبثق سلطانه من إيمان هؤلاء المؤمنين بالله ﷻ، أفكان من الممكن انبثاقه من نفوس أناس لم تهيمن عليها حقائق الإيمان بالله، ومن ثم لم تصطبغ بعد بصبغة العبودية لله؟ إن الخطاب الرباني مهما توجه إلى هؤلاء الناس آمرا لهم بالدخول في السلم، فإن الاستجابة لن تكون للأمر الصادر من لدنه، وإنما تكون الاستجابة لرغائب أهوائهم وعصبياتهم، ولوحي استكبارهم على الآخرين. وهي في مجموعها رعونات لا يذيبها إلا مشاعر العبودية لله ﷻ.

لماذا شرع الجهاد القتالي

لعل في الناس من يقول: فإذا كان الإيمان بالله هو المدخل الذي لا بديل عنه إلى السلم، وإذا كان الإسلام إنما جاء لمدّ رواق السلم في العالم، فلماذا شرع الجهاد القتالي إذن؟ ولماذا توجهت جيوش المسلمين بأسلحتها إلى كل جهات العالم؟

والجواب: لماذا كان القصاص هو الشرعة التي لا بدّ منها لحماية الحياة؟ لماذا كان العقاب هو السبيل الذي لا بدّ منه

للقضاء على الجريمة؟ رواق السلم العالمي ممتد بأمر من الله ﷻ، وضمانات بقائه ورسوخه مشروعة، صدر الأمر الإلهي برعايتها والسهر على تنفيذها. وإن من الضمانات لبقائه الضرب على يد كل من أراد بهذا الرواق سوءا وتوجه إلى العبث به.

إن الجهاد القتالي الذي شرعه الله ﷻ، لم يُقصد به يوما ما التضييق من الحريات التي يتمتع بها الناس، و لم يقصد به جرّهم عنوة إلى معتقد لا يريدونه، أو نظام لا يستسيغونه، وإنما شرعه الله تحصينا لساحة السلم أن لا تمتد يد العبث بها، وأن لا ينتقص من أطرافها، أليس في الدنيا طغاة يطمعون بحقوق الآخرين ويستعملون إمكاناتهم وقوتهم في اقتناصها، كم من أوطان لمستضعفين احتلت، وكم من أموال لهم اغتصبت، وكم من أعراض انتهكت، وكم من حريات صودرت. فما هي العين الساهرة التي لابد منها لحراسة الأوطان والأموال والأعراض والحريات؟ إنها الشريعة الإسلامية الغراء التي ابتُعِثَ بها خاتم الرسل والأنبياء. لقد فتحت بلاد الشام ومصر وغيرها، ولكن هل كان معنى فتح كل منهما إلا طرد المستعمر المحتل الذي جاء من وراء البحار يحتل أرض مصر والشام ويبسط سلطان قهره وعتوه على أصحاب تلك الأوطان؟ وهل عرفت الدنيا أناسا أسعد من أهل مصر والشام بذلك الفتح الإسلامي الذي حرر رقابهم وأرضهم من طغيان الاحتلال الروماني، وأعاد إليهم حرياتهم الضائعة؟

ولكن أفكان من الممكن استعادة الحقوق إلى أربابها وطرد العدو المحتل، إلا عن طريق القهر الجهادي؟ إنها شرعة العقاب والقصاص، هي الضمانة التي لا بدّ منها لحماية الحقوق وحراسة الحريات. وهذا معنى من معاني قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة:١٧٩).

لقد أنزل عمر بن الخطاب ﷺ -وهو أمير المؤمنين- العقاب الصارم، على ابن عمرو بن العاص ﷺ، لأنه حاول أن يستهين بحرية شاب من أقباط مصر، وأصاب برشاش ذلك العقاب والده أيضا قائلا: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" أفكان عمله هذا حماية للسلم الذي جاء الإسلام لرعايته وتحصينه، أم كان انتهاكا للسلم وانتقاصاً من أطرافه؟

إن البيان الإلهي ينهى في القرآن عن الإفساد في الأرض، ويحذر من الإفساد فيها، ويأمر بالضرب على يد المفسدين في الأرض، ويكرر هذا التحذير والبيان في كل مناسبة. من ذلك قوله تعالى خطاباً لقارون: ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧). وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم:٤١). وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٤-٢٠٥).

فما هو المراد بالفساد في الأرض؟ إن المراد به -باختصار، وبكلمة جامعة- العبث بمقومات السلم وضماناته في المجتمع. وصور ذلك كثيرة ومتنوعة، وكلها ينـدرج تحت معنى الظلم وانتهاك قدسية الحقوق.

أليس من مقتضى حراسة السلم والسهر على تحقيق عوامله ومقوماته، الضرب على أيدي العابثين به، والمستمرئين لحقوق الآخرين والممعنين في إهلاك الحرث والنسل كما قال الله؟

ثم أليس من أعجب ما يُذهل العقل أن تسمى حراسة السلم العالمي عن طريق حراسة العدالة والضرب على أيدي المتربصين بمقومات السلم، تطرفا وإرهابا؟ وأن يسمى إلهاب البلاد المطمئنة الآمنة بنيران الحروب الكيدية المصطنعة والعمل على الإيقاع بين الإخوة المتآلفين المتعاونين حماية للسلم ومقاومة للإرهاب؟!

وحصيلة القول

أن الإنسان لو لم يكن منذ أقدم العصور يحمل داخل كيانه أثقالا من الرعونات النفسية، المتمثلة في العصبية والأنانية والرغبة في اقتناص حقوق الآخرين ما وسعه ذلك، لما حمّله الله أمانة الإيمان بالله واليقين بعبوديته ومملوكيته لله، وأمانة الالتزام بالشرعة التي فرضها عليه، لتكون الأداة التي تمكنه من التحرر من تلك الآفات والرعونات النفسية، ومن ثم تيسر له سبيل السعي إلى مدّ رواق السلم العالمي محصناً بسور العدالة وحماية الحقوق.

وأن حب الطغيان واقتناص الحقوق والإفساد في الأرض لو لم يكن الطبع الملازم لكثير من الناس في كل عصر، لما شرع الله الجهاد القتالي، لعدم وجود الحاجة إليه، بل لما شرع الله القصاص في القتلى، ولما رسم العقوبات والحدود التي ينبغي أن يلاحق بها المجرمون. ولكننا قد علمنا أن الظلم من شيم كثير من النفوس البشرية، وأنه يتم على الغالب خلال تيار من الوحشية، نظلم الحيوانات المفترسة عندما نشبه وحشية هذه النفوس بها. فكان لابد من سطوة عادلة تحطم أنياب الظالمين ومخالبهم. و لم يكن من سبيل إلى هذه السطوة إلا الجهاد.

وأن الجهاد الذي شرعه الله لمنع الفساد في الأرض ولحماية رواق السلم أن لا يساء إليه وأن لا ينتقص من أطرافه لم يسخّر يوماً ما للإجبار على اعتناق معتقد في مكان معتقد آخر. إن الإله الذي شرع الجهاد هو القائل في القرآن لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢)، وهو القائل له: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩). ولقد حذر إله الكون الذي شرع هذا الجهاد من أن يستعمل للعدوان على الآخرين أو للاعتداء على أي من حقوقهم. فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).

الفرق بين السلام والاستسلام

وأخيرا فإن من الأهمية بمكان أن لا ننسى -ونحن نتحدث عن السلام ومصدره وأهميته- الفرق الكبير بين السلام والاستسلام. لقد بات من المعروف أن هناك من يغرينا بالسلام ويتحدث عن أهميته ومدى الحاجة إليه، وهو إنما يخطط لتغييب السلام وإحلال الاستسلام محله.

إن السلام بين الشعوب بل بين أفراد الأسرة الإنسانية إنما يعني الألفة التي تشيع فيما بينهم، فيتواصلون بدافع من تبادل الخدمات والقدرات المتنوعة فيما بينهم، دون إجحاف أو بغي من فئة منهم على أخرى. وقد علمنا أن جذوة الإيمان بالله إذ تهيمن على العقل إدراكا وعلى الوجدان تعظيما ومهابة وحبا، هي التي تبعث على رسم هذه العلاقة وتمد بين الأفئدة جسور الأخوة والسلام.

أما الاستسلام فهو نتيجة لمكيدة يخططها القوي متربصا بها الضعيف، مستغلا عجزه وضعفه. فإذا تمت الخطة وتحققت الغاية كان على الضعيف أن يرضى بالمصير الذي سيق إليه، وأن يتجاهل حقوقه التي جردت منه. فإن هو أبى وراح يتوثب للمطالبة بحقه مستنجدا بمن يطمع في عونه وإنصافه، غدا بذلك عدوا للسلام، مجندا لحساب الإرهاب.

إن الإسلام بمقدار ما يدعو إلى السلام ويشرع ضمانات وجوده، يحذر من الاستسلام ويربأ بالإنسان الذي كرمه الله أن يهون أو يذل لسلطان غير سلطان الله. وصدق الله القائل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤). ■

(*) كلية الشريعة -جامعة دمشق / سوريا.

الطفولة البريئة..

مطمئنًا تنام..
لحافك البراءة،
ووسادك الطهارة،
والدنيا من حولك في صخب وضجيج..
والماكرون الخادعون يخطّطون،
كيف البراءةَ منك يسرقون،
وكيف الطهارةَ يدنّسون،
والطفولةَ يغتالون،
والبسمةَ الحلوة على شفتيك يمسحون...
فإلى الله نتضرع،
والعون منه نطلب...
* * *

كم من فكر عبقري ولد تحت أجنحة الليل. وكم من أفكار عالية ومبادئ سامية انشقت عنها رحم الليل... فالبشرية لليل مدينة... ولرجالات الليل، القاهرين النوم، يُعزى كلُّ ما وصلتْ إليه البشرية من تقدم ورقي.

* * *

السنن الإلهية في المنظومة الكونية

أ.د. علي جمعة*

إذا نظرنا للقرآن الكريم على أنه كتاب هداية، بمعنى أننا نتأمل ما فيه من القوانين والمبادئ نجد أنه يحتوي على سنن إلهية. وتتسم سنن الله ﷻ بثباتها وباطرادها عبر الزمان والمكان، فهي لا تتغير ولا تتبدل. وتلك السنن الإلهية بذلك الثبات والاستقرار كونت فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكانت جزءا من مكونات عقل المسلم تساعد في التعامل مع الكون وفهمه. وتتضح تلك السنن الإلهية من مطالعة كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، كما أننا يمكن أن نعدها دليل التعامل مع كتاب الله المنظور (الكون). وكتاب الله المنظور هو بيئة تطبيق الإيمان بكتاب الله المسطور، فكلا الكتابين لا غنى عنهما في الوصول إلى رب العالمين وبلوغ سعادة الدارين.

فما اتضح لنا سمات سنن الله وأشكالها، يجعلنا نؤكد على أن دراسة السنن الإلهية بل واستقلال علم بدراستها وبيان علاقتها مع المبادئ العامة القرآنية أصبح واجبا يمكن أن يفيد الإنسان والإنسانية بنظرة جديدة لمجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية ويمكن بهذه النظرة أن تتهيأ لتجديد علمي واع للخطاب الديني.

وإذا ذهبنا نفصل القول في كل السنن الإلهية لاحتجنا إلى مجلدات، ولكننا نضرب مثالا لهذه السنن بالحديث ثلاث سنن منها وهي: ١- سنة التكامل، ٢- سنة التدافع، ٣- سنة التوازن.

١- سنة التكامل

والتكامل يعني أمورا:

الأول: أن المخلوقات بها نقص جبلي، فيحتاج كل مخلوق إلى باقي المخلوقات في منظومته حتى يحقق الوظائف التي به معاشه وسعادته.

والثاني: أن الله تنزه عن الاحتياج إلى زوج يكمله، وتفرد بالقيومية، وجعل خلقه أزواجا في حاجة في الظاهر إلى بعض، وفي الباطن في فقر دائم وحاجة مستمرة له سبحانه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

والثالث: أن أساس العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان هي التعاون وليس العداء، بل إن أساس العلاقة بين الإنسان والكون هي التفاعل والصلاح والتكامل، مما يؤكد على ما استقر في عقلية المسلم من أن الصراع طارئ، وأن الأساس التكامل.

والرابع: أنه ما دام الأمر كذلك فعلى المسلم مسؤولية كبيرة في هذه الأرض، وهي عودة الاستقرار والسلم إليها، وإنهاء حالة الصراع والنزاع، فتلك المفاهيم التي تترتب على سنة التكامل لو اطلع عليها من يهاجم الإسلام بغير علم، لاعتذر للأمة في تراثها وفي تاريخها، واهتدى بها في سيره لإصلاح العالم بأسره.

الخامس: أن يتواضع الإنسان لخالقه سبحانه، حيث يدرك الإنسان نقصه واحتياجه لكل ما حوله، فهو في حاجة دائمة للهواء الخارجي للتنفس، وللماء للشرب وللطعام للأكل وللنوم، ولقضاء الحاجة وللزوجة وللأبناء وللأصدقاء، والله هو الذي يغني الإنسان بتوفير كل ذلك له، فيتواضع لعظمة الله ويتقين من فقره، ويعلم أنه غير قادر على الاستقلال بعيدا عن الله وفضله.

والله قد خلق الأكوان مختلفة في ظاهرها، لكنها متحدة في الهدف والغاية. فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد. فالليل والنهار يشكلان يوما واحدا، لكل منهما خصائص، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص، ولكل منهما وظيفة، والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة، والغني والفقير، وأغلب الثنائيات خلقية أو قدرية. فالخلقية كالليل والنهار والذكر والأنثى، والقدرية كالحاكم والمحكوم والغني والفقير. وسميناها قدرية لنفرقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعي للإنسان واختيار وكسب، إلا أنها من فضل الله وقدره أيضا.

نحتاج إلى فهم عميق لسنة التكامل، فإن في فهمها الخير الكثير، وفي ترك فهمها وعدم القدرة على استكشافها الشر الكثير، فإنّ فهم سنة التكامل يجعل أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع، ولذلك يفهم العلاقة بين الذكر والأنثى على أنها خلقت للتكامل، بخلاف التوجه الذي يدعو إلى أن الأصل هو الصراع، وأنه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل على حقوقها، وأن المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأن الإنسان يجب أن يصارع الكون حتى يحصل منه منفعته، على ما استقر في الفكر الإغريقي من فكرة صراع الآلهة وانتصار الإنسان في النهاية عليها.

وفهم سنة التكامل لا ينفي حدوث الصراع أو إمكانية حدوثه ووقوعه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلا للخلقة لا يمكن الفرار منه، وبين أن نجعله حالة عارضة يجب أن نسعى لإنهائها حتى تستقر الأمور على الوضع الأول الذي خلقه الله.

هذا التكامل هو الذي يفرق عند فهمه بين المعنى الروحي للجهاد في سبيل الله وبين الحرب التي تشن هنا وهناك لأجل المصالح والهيمنة والاستعلاء في الأرض والفساد فيها أيضا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الإسراء:١٢)، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف: ٣٢).

نتائج التكامل

وهذا التكامل هو الذي يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة مآلها إلى السكن والسكينة وإلى المودة والرحمة وإلى التعاون وعمارة الأرض بالنسل الصالح القوي، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم:٢١).

ذلك التكامل الذي يجعل الحاكم والمحكوم في

خنـدق واحد أمام كيد الكائديـن، ويجعل الحاكم رفيقا رحيما بالمحكومين، راعيا لشـئونهم، قائما بمسئوليته على أكمـل وجه، حيث يتمثل كل حاكـم وصية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ لمالك بن الأشـتر ﷺ حين ولاه مصر، عندما قال له: "وأشـعر قلبك الرحمـة للرعية والمحبة لهم واللطف بهـم، ولا تكونن عليهم سـبعا ضاريـا تغتنم أكلهـم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلـل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطـأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثـل الذي تحـب أن يعطيك الله من عفـوه وصفحه". والتكامل يجعل المحكـوم متعاونا متفهما لحاكمه، معرضا عما لا فائدة من ذكره، مقبـلا على صالح بلاده ونمائها.

إنه التكامـل الذي يجعل صاحب العمـل يتعاون مع العمال، وصاحب رأس المال يتكامل مع القوة البشرية التي تدير المشـروع، فلا يكون هناك بين صاحب المال بحيث يطمع ويستغل ظروف سوق العمل، ولا يكون هناك ضغط من العمال لأخذ ما لا يسـتحقون، بل يتعاون الجميع على تنمية اقتصاد البلاد وصالح أحوالهم المعيشية بما يرضي الله.

إنه التكامل الذي يجعل صاحب البناء متعاونا ومتفاهما مع المستأجرين، فيتعاون الجميع على نظافة وجمال بنايتهم، فيصبح الحي كله نظيفا جميـلا، ومن ثم تكون البلد كلها متحضرة عنوان على نظافة المسلمين وتعاونهم.

ذلك التكامل هو الذي يجعل الغني يساعد الفقير، ويجعل الفقير منتجا ويتخلص من فقره، ويجعل الشعور السائد بين الأغنياء والفقراء الحب والتعاون، فلا يرى الغني في نفسـه فضلا على الفقير، ولا يرى الفقير في نفسه دناءة.

هذا التكامل الذي إذا ما تم في كل تلك المجالات، يتحقق فينا وصف المصطفى ﷺ إذ يقول: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسـهر والحمى" (متفق عليه). هذا التكامل الذي أراده الله لصلاح الناس وإصلاح الأرض وإعمارها.

٢- سنة التدافع

سنة التدافع، وهي سـنة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾(البقرة: ٢٥١).

وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشـر، فهو لم يحصر هذا في القتال أو النـزاع والخصام -كما ورد في التفاسير- عبر بالتدافع ليشمل كل أنواع التعاون والاختلاف بل والصراع والصدام للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار وتحقيق مراد الله من خلقه: عبادة، وعمارة، وتزكية.

فالتدافع سـنة إلهية تبين أن الإنسـان قد خلقه الله ﷻ اجتماعيا يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يخلقه منعزلا قـادرا على البقاء وحده حتى يحقـق مراد الله من خلقه، بل إنـه لابد أن يعمل في فريـق ليصل إلى هدفه، وعمله في الفريق وحراكه الاجتماعي ونشاطه الذاتي يحتاج إلى إدراك سنة التدافع. وإدراك هذه السنة يتولد منها قوانين كثيرة لضبط هذا النشاط والحراك، وعليه فإن عمليةً فكريةً لابد أن تسبق النشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاط الفكر، وكان ينبغي أن يسبق الفكر النشـاط ويسـبق حديث القلب أيضا الفكر ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الآمرين.

وتكون سـنة التدافـع بمدافعة أهل الخـير وجند الله، لأهل الشر والإفسـاد في الأرض؛ وذلك لتحقيق الصلاح والاسـتقرار على الأرض، فقد أوضح ربنا ﷻ أن من آثار هذه السنة الإلهية منع الفسـاد في الأرض ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة: ٢٥١). وأوضح سـبحانه أن هذا التدافع الذي جعلـه الله تعالى بين جنده القائمين بالصلاح والإصلاح وإعمار الأرض، وبين أعدائه الفاسدين المفسدين القائمين بتخريب الأرض من أعظم نعم الله على البشرية، إذ لو تُرك الفاسد يشيع الفساد في الأرض ويستضعف الصالحين، وهم لا قوة لهم لتهدمت كل القيم وكل الأشياء الجميلة في هذا الكون، حتى أماكن عبادة الله ﷻ، كما أخبر الحق تعـالى بذلك فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْـرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَـا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْـضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج: ٤٠).

وسـنة التدافع ليست أمرا شـرعيا بقدر ما هي حالة

تحـدث لتطهير الأرض ونقاءها، فـإن الله لا يبقي الخبيث يقود ويسـود حياة الناس أبدا، حـتى وإن مكنه من ذلك قليلا، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(الرعد:١٧).

فإن حـق قيادة الناس يكون دائما للأصلح الذي يحقق الخير والنماء والرخاء لهم، بما يحقق حضارة الإنسـان، التي تعلو فيها القيم الأخلاقية على الشـهوات، ولذا كتب الله ﷻ ذلك في الرسـالات السـابقة قبل القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۞ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٥-١٠٧).

ومن أجل تحقيق ذلك كتب الله في كونه تلك السنة التي بينا معناها وأشكالها، وموقف أهل الخير منها وأهل الفساد.

٣- سنة التوازن

وهي سنة قد أشار الله إليها كونيا، قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر:١٩)، وقيميا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: ٩)، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(الشورى:١٧)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

ونرى مرة ثانية أن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشـاط الإنساني بعد التوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدثنا عن مثل هذه السنة لرأينا أنها سنة كونية وسنة قيمية، ونأخذ منهـا موقفنا من قضايا البيئـة وموقفنا من قضايا الفكر، وموقفنا من مفهوم العدل خاصة إذا رأيناها تمتد إلى الآخرة والحسـاب وتمثل دالا على عدل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(الأنبياء:٤٧)، وقال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(الأعراف:٨).

والذي لابد للإنسان أن يتمثل به ثم يأتي التكليف على وفق هذه السنة مشـيرا إلى أن التكليف بالأحكام مرتبط ارتباطا تاما بالسـنن الإلهية المحيطـة بنا، وأن تطبيق هذه الأحكام من خلال فهمنا للسنن وتفاعلنا معها هو الضامن لتحقيـق هدفها والوصـول إلى مقاصدهـا يقول تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:٨٥).

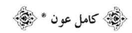
فالتوازن هو التوسط بين الإفراط والتفريط في كل الأمور، وهذا التوسط هو من خصائص هذه الأمة المحمدية الخاتمة، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). والوسـط هو الأجود والمختار والأعلى كذلك، يقول ابن كثير في تفسيره "والوسط هنا: الخيار الأجود، كما يقال: قريش وسط العرب نسبا ودارا، أي: خيرهم، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، ولما جعل الله ﷻ هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوى المناهج، وأوضح المذاهب".

الوسطية أو التوازن تساهم في بناء المسلم متوازنَ النفس، متزن العقل، سـليم الصدر، النافع لمجتمعه ووطنه، ولقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت في عهد وزيرها الأستاذ الدكتور عبد الله معتوق المعتوق بعمل أمانة لمشروع الوسطية، وجعلت عليه أمينًا عاما هو المفكر الإسـلامي والعالم الكبير أ.د عصام البشير وزير الأوقاف السـابق بدولة السودان، وهذه الوسـطية كمنهج حياة، وكفكر ديني، هي التي ينبغي أن تشيع في الفكر الإسلامي الآن، وهي التي من خلالها صدر بيان عمان الذي اعترف بالمذاهب الإسلامية كلها، والذي كان بيانه الافتتاحي من فضيلة الإمام الأكبر شـيخ الأزهر، والذي تأكد وتأيد في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في شعبان سنة ١٤٢٦هـ الماضي، والذي وقعه أكثر من مائتي عالم ومرجع من مراجع الفقه الإسلامي في العالم.

فالتوازن إذن سـنة إلهية نتعلم منها الكثير؛ نتعلم منها الإنصـاف وقول الحق في الغضب والرضـا، ونتعلم منها التفكير المسـتقيم، ونتعلم منها بناء العقلية العلمية، وترك عقلية الانطباعات. ■

(*) مفتي الديار المصرية.

لا تذهب يا أبت..



كامل عون *

الشاحنات تخترق أمواج الرمال في الصحراء المحرقة مخلّفة وراءها غيوما غبارية صفراء... أرض المخيم في وسط هذه الصحراء ممتلئة بأجساد أناس كالأشباح حاصرهم الفقر والجوع والمرض من كل جانب، وقذفت بهم رياح اليأس إلى دهاليز مجهولة المستقبل... وإذا بشاحنة تقف بفرملة مزعجة على أرض المخيم، وتندفع منها امرأة شابة بيضاء البشرة وبين يديها طفل أسمر مغشي عليه، تلتفت يمنة ويسرة بذعر، وتطلق صيحات وتوسلات تتعالى وتطغى على أي صوت آخر: "النجدة!.. ساعدونا أرجوكم ساعدونا!.."

فلا أحد يبالي بها ولا أحد يبادر لمساعدتها، كأن الناس هنا اعتادوا على مثل هذه الحالات وعلى مثل هذه الصيحات... وعلى الأثر أخرجت من الشاحنة أم الطفل في حالة أسوأ من ابنها بكثير يحملها رجلان إلى مستشفى الصحراء... مشهد مرعب.. المستشفى تعج بالمرضى وليس هناك سرير شاغر للمرأة وابنها، فألقيا على الأرض في إحدى الزوايا تحت حر الشمس الحارق لفترة من الزمن.. وبعد وقت قصير حضر الطبيب الوحيد في هذه الصحراء وراح يفحص الأم وابنها الممدودَين على الرمال اللاهبة... هز رأسه وقال دون اكتراث: "لا فائدة.. إنهما يموتان.." ثم همّ بالعودة إلى حيث أتى.. كان لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على المرأة البيضاء.. فجمدت في مكانها وشحب وجهها وارتعشت أناملها وقالت بصوت واهن مرتجف: "أتوسل إليك ساعدهما.." فردّ دون أن يلتفت إليها: "إنهما يموتان.. ليس بوسعنا أن نفعل شيئا، إنها مضيعة للوقت"... ساد السكون لحاظات.. ثم انفجرت بصرخة غاضبة في وجه الطبيب الذي راح يبتعد عنها شيئا فشيئا: "لستَ أنت الذي تقرر موتهم!.." وأجهشت بالبكاء... كلمات سمّرت قدميه في الأرض فتوقف برهة ثم أشار

بيده إلى مساعده بأن ينقل المرأة وابنها إلى الخيمة. وبعد بضع ساعات أُخذت الأم إلى خيمة العمليات الجراحية...

صرخات استرحام تصمّ الآذان.. ما كادت تطمئن المرأة البيضاء في مكانها حتى دخلت إلى الخيمة في لهفة وقلق... يا لهول المشهد... المرأة الأم ممددة على طاولة من خشب والذباب ملتفّ عليها.. بطنها مشقوق، وقد تدلت حبال أمعاؤها يمينا وشمالا، وجسدها كله يهتز ورجلان يمسكانها بكل ما لديهم من قوة حتى لا تتحرك من شدة الألم... لم تعد المرأة البيضاء تسمع إلا أنفاسها اللاهثة، ولم تشعر إلا بصدرها الذي يعلو ويهبط رعبا.. قالت وعيناها تدوران في قلق ودهشة: "يا إلهي! ماذا فعلتم بالمرأة؟! إنكم تقتلونها؟!"

انتفض الطبيب حدّة واحتقن وجهه بالغضب.. ألقى نظرة إلى المرأة التي شُقّ بطنها دون مخدّر ثم ركز نظراته في وجه المرأة البيضاء وهتف: "أين ظننت نفسك يا امرأة! في مستشفى خمس نجوم!؟ نفد كل شيء، لا أدوية ولا مخدر.. الناس يموتون هنا من الجوع!".

....

مشاهد مثيرة على شاشة التلفاز. أجل، كان إبراهيم يشاهد هذه اللقطات المثيرة من فيلم يعرض على التلفاز... إنه سمع عن إفريقيا الشيء الكثير ورأى عنها شتى الصور من الكتب المجلات والجرائد.. غير أن هذه المشاهد التي رآها قبل قليل حزّت في نفسه ورسمت على جبهته سطور ألم ناطق... نكس رأسه وغاب في تفكير عميق.. وإذا بصوت زوجته: "هيا، الطعام جاهز".. ظل إبراهيم واجما في مكانه مكروبا مهموما شاعرا بالذنب.. كيف يحلو له طعام أو يستسيغ له شراب بعد أن رأى ما رأى؟! أراد أن يروّح عن نفسه فتوجه مستأذنا زوجته إلى الشرفة.. جلس على كرسيه الهزاز.. تنهدات أخرجها من الأعماق ثم قال في نفسه؛ "يا إلهي ما هذا الذي يجري في هذه الدنيا!.. أيعقل أن يعيش الناس هنا حياة رخاء ونعمة، ويعيش أولئك المساكين هناك تحت قيود الفقر والجهل والمرض والجوع.. لا.. سأذهب إلى تلك البلاد..". لحظات كأنها تحدد مصير حياته.. كان يحب مساعدة الفقراء أينما كانوا، ويمد يد العون إلى كل محتاج بلا تردد، حتى إنه كان يرسل كل عيد أضحى عشرات الأضاحي إلى مختلف أرجاء العالم، ويساهم بجمع الأخرى مع المنظمات الخيرية التي نذرت نفسها إلى خدمة الإنسانية.. ولكن هذه المرة قرر أن يذهب بنفسه..

قام من مكانه وتوجه نحو الغرفة حيث المكتبة.. تناول كتابا بعنوان "ونحن نقيم صرح الروح".. فتح الكتاب وبدأ يقرأ: "الشعور بالمسئولية هي أول وسيلة لتحقيق رؤانا وأحلامنا.. ينبغي ربط جهودنا بالمسئولية.. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضا الله في كل رفّة عين.. ينبغي أن نشعر بالمسؤولية لأنها صدَفَةُ كينونةِ الإنسان وحكمة وجود الإرادة..". وكأن هذه الكلمات تؤيد قرارَه وتشد عزمه وتدفعه إلى تحقيقه...

....

مكبرات الصوت تذكّر الركاب المسافرين بالتوجه إلى بوابة "كونغو". ألقى بنظراته الأخيرة على زوجته وأولاده الذين لم يكن يتصور الحياة بدونهم.. ثم ضمهم إلى صدره واحدا واحدا وقبلهم مرات ومرات.. الكل يبكي.. التفت إلى زوجته التي كانت تمسح دموعها وقال في رقة: "أستودعكم الله، اعتنوا بصحتكم جيدا.. وادعوا لي بالتوفيق".. "أبت لا تذهب.. لا تتركنا أرجوك!"..

ما إن سمع هذه الكلمات حتى لمعت في رأسه صورة أمّنا هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام عندما تركهما إبراهيم عليه السلام في صحراء مكة القاحلة وجبالها.. في صحراء لا زرع فيها ولا ماء، ولا أنيس ولا جليس.. دوّى في رأسه صراخ الطفل إسماعيل عليه السلام الذي كان يتردد صداه في أجواء هذه القفراء، ونداء الأم الذي كان يشق عنان السماء: "يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟.." وإبراهيم يغيب عن الأنظار رُويدا رويدا دون أن يلتفت إلى الوراء.. فتنادي الأم مرة أخرى: "آلله أمرك بهذا؟!". فيهتف:"نعم." عندها ترتاح أمّنا هاجر وتقول في غير تردد وقلق: "إذن فلن يضيعنا".. يا لها من ثقة بالله عظيمة.. ثم تساءل: "هل كانت الكعبة المباركة تقام ويأتي الناس إليها من كل فج عميق لولا ترك إبراهيم الخليل عليه السلام أمّنا هاجر في هذه الصحراء؟.. هل يسعى الناس بين الصفا والمروة، وهل يشربون من ماء الزمزم؟!. أجل، كل هذه الأشياء لهي لحكمة إلهية"..

ثم التفت إلى ابنته الصغيرة التي كانت تنادي من صميم قلبها.. نظر إلى عينيها المبللتين بالدموع ثم اقترب منها واحتضنها وراح يقبّلها بحرقة قلب ويكلّمها بلطف: "أبوكِ لن يغيب طويلا إن شاء الله، بضعة أشهر ستمر سريعا بإذنه يا حبيبتي..". شعر أن الأرض تميد به وأنه لم يعد يقدر على مقاومة مشاعره الجياشة.. مسح دمعة أفلتت من بين أهدابه ونظر إلى زوجته نظرة المستغيث وكأن لسان حاله يقول: "أرجوكِ ساعديني.." فتناولت منه طفلته الصغيرة ولو بصعوبة.. حمل حقيبته وأخذ يمضي نحو البوابة بسرعة دون الالتفات إلى الوراء خشية أن يعدل عن رحلته ويرجع، وصغيرته تنادي "أبت.. أبت.. لا تذهب..".

ألقى برأسه على حاجز المقعد في الطائرة وشرد بنظراته إلى

بعيد.. رنّت في أذنه كلمات أستاذه التي قالها يوما: "كالشمعة.. عليكَ أن تشتعل وتذوب لتنير الدروب للآخرين..". وهل سيستطيع أن يكون شمعة تذوب من أجل إحياء الآخرين؟ توجه إلى مولاه ﷻ ضارعا: وما توفيقي إلا بك، ولا اعتمادي إلا عليك.. يا رب يا الله! عليكَ توكلتُ وإليك أنبتُ، فيسّر لي أمري، وثبت أقدامي..".

....

الوجوه متشابهة في ملامحها وسمرتها في "كونغو".. النظرات مصوبة إليه وكأنها سهام ترشقه.. كان أبناء هذه المدينة يتوجسون خوفا من الرجل الأبيض، لأنه أذاقوهم هوانا ما بعده هوان وسامهم ظلما ما بعده ظلم... فالرجل الأبيض في نظرهم شيطان أمرد، ولابد أن هذا الرجل الأبيض الغريب واحد من إخوانه. حاولوا في المطار أن يُرجعوه من حيث أتى، حتى إن بعض المتعصبين منهم كان يكور قبضته ويزم شفتيه ويشير بإصبعه إلى عنقه ويقول: "الموت للبيض".

مضت الأيام بسرعة.. هاهو عيد الأضحى على الأبواب.. شرع بتنظيم قائمة أسماء أصحاب الأضاحي وفي مقدمتهم اسم الرسول ﷺ حسبما طلب منه أصحابه الأتراك الذين آزروه ماديا ومعنويا في مهمته هذه.. اشترى ٦٣ كبشا وراح ينتظر يوم العيد بفارغ الصبر..

....

استلقى إبراهيم على فراشه ليأخذ قسطا من الراحة.. تناهى إلى سمعه التكبيرات والتهليلات من مكبرات المآذن المتناثرة القليلة في المنطقة.. إنه صباح العيد.. الساحة تغص بالناس ذوي الوجوه السمراء والأبدان النحيفة. وإذا برجل يشع وجهه نورا يتقدم نحوه بخطوات رزينة... إنه أشرف خلق الله عليه الصلاة والسلام وبيده قائمة.. فهبّ إبراهيم مسرعا لاستقباله بفرح جم وسعادة غامرة ووقف إلى جانبه باحترام واستحياء... أخذ الرسول ﷺ يقرأ الأسماء واحدا تلو الآخر: أويس، صادق، أحمد، عبد الرحمن... حتى أكمل العدد ٦٣...

أفاق إبراهيم من نومه وجبينه ينضح بالعرق، فوجد الدموع تتخذ لها مسارا فوق خديه.. كان يبكي.. همست شفتاه بصوت خافت وقلبه يرفرف بين أضلاعه من الفرح: "إنه هو!..". أحس كأن يد الرسول ﷺ تمسح رأسه... قال في شوق: "يا رسول الله، يجهلك الناس في هذه البلاد النائية ولا يعرفك حق المعرفة!"..

....

لم يصدق أهل هذه المنطقة ما رأوه بأعينهم!.. كيف لرجل أبيض يحسن إلى أسود ويذبح الذبائح من أجله، هذا شيء عجاب!.. كل شيء من حوله يوحي بالسعادة والرضى، وكأن هؤلاء المساكين لم يعانوا أو يشقوا طوال حياتهم!.. وكان إبراهيم يتشرب هذه الفرحة في استمتاع ونشوة غامرة.. كلٌّ يتناول كيس لحم يمضي به نحو بيته بوجه طلق مشرق... فلمح إبراهيم غلاما صغيرا منفردا، يقف بعيدا عن الناس وكأنه يتحرّج من الاقتراب.. دنا منه وراح يمسح على رأسه بحنان ثم حمله إلى حضنه، لاطف شعره المجعد وقبّله... تذكّر أولاده فغمغم في نفسه: "ما الفرق بين الأبيض والأسود، أليسوا كلهم أولادنا وفلذات أكبادنا.. أليسوا كلهم أملنا ومستقبلنا". ثم أعطاه كيسا من اللحم.. فهرول الغلام الصغير إلى أمه بفرحة عارمة وراح يحدثها.. فظن إبراهيم أنه سعدَ بكيس اللحم.. ولكنه علم فيما بعد أن الغلام يقول لأمه: "مسح الرجل الأبيض رأسي وأحبّني يا أماه"... جاشت عواطفه وأطلق صراخات صامتة من أحشاء قلبه: "الحمد لله ملء السماوات والأرض أن كرّمني بخدمة هولاء المساكين..". وبعد إنهاء مهمته هنا ولّى وجهه شطر منطقة أخرى..

....

وصل هو ورفاقه إلى قبيلة تبعد عن المدينة بأربع ساعات بعد رحلة شاقة عبر النهر على قارب صغير. تعجّب رئيس القبيلة وأهلها من قدوم رجل أبيض إلى قبيلتهم، إذ لم يأتهم زائر أبيض من قبل أبدا.. فأراد رئيس القبيلة أن يلتقي بالضيف.. وما إن علم غايتَه حتى رحب به واستقبله بحفاوة بالغة.. فعمّ الفرح في جميع أطراف القبيلة... إذن، جاء إليهم رجل أبيض ليساعدهم لا ليستعبدهم.. رجل أبيض يرى الناس جميعهم سواسية كأسنان المشط لا فضل فيهم لأبيض أو أسود.. يا لها من أخلاق فاضلة!.. لعله هو الإنسان الذي يجب أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه... فحاولوا أن ينهلوا كل ما عنده من الأخلاق والعلم والفضيلة في ساعات معدودات..

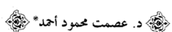
وعندما آن أوان الفراق قال رئيس القبيلة لإبراهيم وعواطفه تجيش بالحزن والأسى تارة، وبالفرح والسرور والرحمة تارة أخرى: "سر على بركة الله، فقد بعثت الروح في أجسادنا الميتة، وأيْقَظتنا على النور الخالد والرسالة السمحاء فأحييتَ بها قلوبنا.. علّمتنا معنى الحياة وعلمتنا الحب والإخلاص والعطاء..." ■

(*) كاتب وأديب / اليمن.



روح مشتعل، ووجدان ملتهب، بالدمع أطفئه... فعينك إذا اغرورقت
بالدموع هي صنو العين إذا الماء عنها تفجَّر، ولهبَ الصحراء أطفأ وسقا..!

بالقرآن تسعد القلوب وتأنس النفوس


د. عصمت محمود أحمد*

تُعنى فلسفة الأخلاق بصورة جوهرية بدراسة مبادئ السلوك الإنساني وغاياته، وتجيء السعادة كواحدة من أهم غايات ذلك السلوك. لهذا تعد قضية السعادة الإنسانية من القضايا التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم، وما يزال البحث الفلسفي عن حقيقتها حتى الآن بذات الحيوية التي كانت قبل أزمان عتيقة، ولهذا فإن إشكالية البحث النظري حول السعادة تلج في نطاق طائفة من الإشكالات الفلسفية الحية والمعاشة التي تستمر كذلك حاضرة ومرافقة الوجودَ الإنساني.

لقد ظلت القضية الأخلاقية المتمثلة في تحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للسلوك تمثل مرتكزا أساسيا لخطاب القرآن الكريم، فالقارئ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد البعد الأخلاقي بارزا محتلا موقع الصدارة في التعاليم والآداب الإسلامية، وهذا يفضي بنا ليس إلى تأكيد التناول القرآني للمسألة الأخلاقية فحسب؛ بل إلى تقرير أن نصوص القرآن الكريم قد عمدت في شطرها الغالب

إلى معالجة تلك المسألة.

وهـذا الأمر كان حاضرا في فكـر الإمام أبي حامد الغزالي؛ فهـو إذ يحلل في مؤلفه القيم: "جواهر القرآن"، نجده يرد جواهر القرآن إلى عنصرين أساسـيين، يتصل أحدهما بالمعرفة ويتصل الأخر بالسـلوك. وبذلك فإنه يجدر بنـا إعمال النظر في القرآن الكريم بحسبانه رسـالة أخلاقية، أنزلت على من وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤)، وهو الموصوف بالخلق العظيم أبان عن الهدف المحوري للرسالة المحمدية بقوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه مالك).

بيـد أن المتأمل في آيات القرآن الكـريم يلحظ أن نصوص الوحي القرآني قد خلت من مفردة "السـعادة"؛ إذ لم ترد تلك المفردة في آية قرآنية قط؛ بل وردت كلمتا سـعيد وسـعدوا في موضعين متقاربين من سـورة هود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَـهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هـود:١٠٥-١٠٨). ولعل النص القرآني في سياق هذه الآيات لم يكن معنيا في المقام الأول بإبراز رؤية وتصور قرآني حول السعادة؛ بل كانت الإشارة هنا مصوبة نحو بيان مآل العباد في اليوم الآخر ما بين شقي وسعيد.

ومن هنا وعلى خلفية عدم ورود مفردة السـعادة في أيّة آية في القرآن الكريم برز سـؤال ظل يطرحه عدد ممن تناولوا قضايا فلسفة الأخلاق في الإسلام فتساءلوا حول اشتمال وتضمن القرآن الكريم لرؤية أخلاقية حول السـعادة، وتمدد هذا التساؤل حول مساهمة المفكرين المسلمين في الفكر الأخلاقي بصفة عامة.

ويجدر أن نشـير هنا إلى أن التعامل مع مثل هذه الأسئلة التي تمس قضايا ذات أبعاد جوهرية في الخطاب القرآني يجب التعامل معها بمزيد من الإقبال على القـرآن الكريم تدبرا وتأملا، وبَذْلِ مزيد من الدرس لتلمـس المفاهيم والتصورات القرآنية، كما أنه ينبغي ألا نبحث عن رؤيـة أخلاقية قرآنية وفق مرجعية معيارية تنتمي لنسـق أخلاقي آخر، خاصة إذا كان هـذا الآخر مباينا في منطلقاتـه ومرتكزاته للرؤية القرآنيـة حول الكون والوجود الإنساني، مثلما فعل رواد الفلسفة الإسلامية في انسياقهم خلف النموذج الأفلاطوني والأرسـطي، وهما يصدرون في تصوراتهم الأخلاقية عن رؤية كلية تجاه الوجود والإنسـان مفارقة لما عليه الرؤية القرآنية، وهذا ما حال بين أولئك الفلاسفة وبين الانتهاء إلى نسق قرآني متكامل صادر عن الآيات القرآنية ومتوافق معها.

وفق هذا السـياق فإن الأوفق عند تنـاول قضايا الأخلاق القرآنية التنبه إلى أن الرؤية القرآنية تنطوي على نسـق أخلاقي متكامل؛ يتسـم بالثبات ويرتكز على ركائز وكليات نابعة من تصور كلي للوجود والإنسان يتسم بالصفاء والنقاء.

كليات التصور القرآني للوجود والإنسان

كما سبق الإشارة إليه فإن فلسفة الأخلاق عبر مدارسها وتياراتها المختلفة تبحث في مبادئ السـلوك الإنساني وغاياته، فإن ذلك يعني بالضرورة أن تغدو قضية السـعادة محـورا هاما في التفكير الأخلاقي باعتبارها تلج في نطاق غايات السـلوك؛ ومن هنا فلا مجال لاستبعاد تصور قرآني أخلاقي حول السعادة الإنسانية؛ بيد أن المفهوم القرآني للسعادة يستند كما أشرنا في المقام الأول على نقاء وصفاء كليات الرؤية الإسـلامية للوجود والإنسان. ويمكن الإشارة إلى هذه الكليات على النحو التالي:

أ-التوحيد حقيقة الوجود

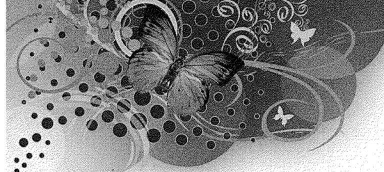
أولى تلـك الكليات التي تجيء كركائز للتصور القرآني ماثلة في إثبات وجود الله جل شـأنه، الخالق المتفرد بالخلق والإنشـاء والتقدير، المتصرف في مقادير السموات والأرض بسطا وقبضا، وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال والجلال.

بـ-الخلافة غاية الوجود الإنساني

من ركائز التصور الإسـلامي التي يقررهـا القرآن الكريم بجلاء تام عـبر طائفة من الآيات نفيُ عبثية الوجود الإنسـاني، وهـذا ما يتواتـر في أكثر من موضع في القـرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥). ونفيُ العبثية عن الوجود الإنسـاني يستلزم الإبانة عن غاية ودور ووظيفة الوجود الإنساني؛ وهذا ما تجيء الإشارة إليه في ثنايا الحوار العُلـوي في ثنايا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ومن ثم فإن هذا المبدأ القرآني -مبدأ الخلافة- يجعل للإنسـان وظيفةً ودوراً وتكليفا، وللوجود الإنساني غاية ومطلبا، وهذا الدور يمثل الهدف الأساس للوجود الإنساني، وهو الذي أعطى ذلك الوجود صفة مائزة عن سائر المخلوقات، وبمقتضى هذا التكليف يتنسم الإنسان وظيفةً ومسؤولية كونية ذات أهمية وجودية هائلة.

جـ-البعث والجزاء الأخروي

بطبيعة الحال فإن التكليف والمسـؤولية يقتضيان الحسـاب



والجزاء، ومن هنا فإن حقيقة البعث والحساب الأخروي تمثل ركيزة هامة من ركائز التصور القرآني. وحقيقةُ البعث والجزاء ذات أثر مباشر في تشكيل منظومة الفكر الأخلاقي الإسلامي، فالإيمان بالبعث والنشور والجزاء كلية هامة وأساسية، "وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية (أي الحساب والجزاء) في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى يستحق أن يجاهد لها".

د-المسؤولية الفردية تجاه الحساب والجزاء

يتصل بمبدأ البعث والجزاء الأخروي حقيقةُ فردية ذلك الحساب والجزاء ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم: ٣٨-٤١)، وهذه الحقيقة ذات صلة وثيقة وانعكاس مباشر على صعيد الشعور الأخلاقي لدي الفرد، عندما يوقن أنه مجزيّ بعمله ولا يستطيع الفكاك من كسبِ نفسه، فيعمل على محاسبتها والتخلي عن كل أمل يخادع في أن يناله آخر -مهما كان- بنفع أو يحمل عنه تبعة. إن الله ﷻ لا يحاسب الناس جملة بالقائمة، إنما يحاسبهم فردا فردا؛ كلٌ في حدود واجباته ومسؤولياته.

وعند إعمال النظر في تلك الركائز التي يقوم عليها التصور القرآني في مجالي الدنيا والآخرة نجد أن الفكرة القرآنية تخلص بنا إلى نتيجة هامة وهي أن الإنسان يمثل الكائن الوجودي الأوحد الذي جُعلَ في مركز الحياتين: الدنيا المحدودة الفانية، والآخرة الممتدة الباقية.

بين مفهومي الفلاح والطمأنينة

لقد انشغل المفكرون منذ القدم بالبحث في ماهية السعادة؛ فقدموا أطروحات متباينة، ونريد أن نشير إلى أن الرؤية القرآنية للسعادة تتمحور حول مفهومي الطمأنينة والفلاح، مع نظرة خاصة لمفهوم الطمأنينة باعتبار أن الوصول إلى طمأنينة القلب تمثل جوهر السعادة القرآنية ومنتهى السير الإنساني في سبيله المتسامي نحو الله ﷻ.

هكذا فإن هذين المفهومين -أعني الطمأنينة والفلاح- يُراد لهما أن يحلا محل سائر المفاهيم التي طرحها الفلاسفة من لذة ومنفعة وواجب وغير ذلك. وقبل أن نجيء على تناول هذين المفهومين فثمة أهمية تدعونا للإشارة إلى قضية أساسية في البناء الأخلاقي القرآني وهي مسألة وحدة السعادة الإنسانية:

وحدة السعادة الإنسانية

تتواتر آيات القرآن الكريم نحو تأكيد الطبيعة الغائية للوجود؛ فهي تنفي في غير ما موضع أن يكون هذا الوجود جاء حدوثه صدفة عارضة، أو عبثاً بغير قصد ولغير غاية، بل على النقيض من ذلك تشير إلى أن الله تعالى أوجد الوجود في أحسنِ وأكمل هيئة وصورة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(السجدة:٧)، وهو ﷻ من بعد إحسان الخلق لم يترك الوجود هملاً، إنما يتعهده بالرعاية والتربية وبهذا يلهج المسلم بالمناجاة في كل وقت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢). فالرب مشتق من التربية، وهو المالك المتصرف للإصلاح، ومن هنا كانت ربوبيته مطلقة شاملة كاملة لا تغيب عن الوجود لحظة. فالصلة بين الخالق والخلائق دائمة وممتدة في كل وقت وحال، فالوجود جميعه يتجه إلى رب واحد، له السيادة المطلقة عليه، وهو يتعهده بالرعاية الدائمة غير المنقطعة.

ونسير في رحاب هذا المعنى الشفيف لنجد أن التصور القرآني يؤكد أن ثمة هداية ربانية عامة وشاملة لكل الخلائق تقودها وتسوقها سوقا رفيقا نحو كمالاتها وغاياتها وسعادتها. وهو ما نقرأه في طائفة من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩)، فهذه الآيات تشير إلى أن المولى ﷻ قد أوجد الخلائق على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها وغاياتها، وأوفاها حقها بما يناسب ما قدر لها، فهي محاطة في مسيرها نحو ما قدره الله لها بهداية ربانية تكوينية، وهكذا فإن الإنسان هو كائن قد وهبه الله بَعد استواءِ وتمام خلقه هدايةً ربانية يهتدي بها صوب مقاصدِ وجوده وكمالات ذاته أي سعادته.

ولما كانت هذه الهداية الربانية على المستوى الإنساني تُرسِّخ لمفهوم "وحدة السعادة الإنسانية"؛ فإننا نجد مظاهر تلك الهداية ماثلة ومشاهَدة في طائفة من السنن العامة المركوزة في مسيرة الجنس الإنساني. ولهذا نجد أن آيات القرآن الكريم تتخذ من هذه السنن أدلةً تقود إلى الإيمان بوحدانية الله ﷻ، وهذا الاستدلال يضفي على هذه السنن صفة الاستمرارية والرسوخ، وإلا لبطل وجه الاستدلال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(الروم:٢٠-٢٣).

فهذه الآيات تشير إلى أن هناك هداية فطرية ظاهرة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي خلق قواه الفعالة التي تقوده إلى السعي والانتشار في طلب الرزق، وفي إيجاده على زوجين بحيث جهز كلا منهما ليتمم الآخر، وفي أن أودع الرحمة والمودة والحب بين هذين الزوجين ليسكن كل منهما إلى الآخر؛ فتنتقل هذه الرحمة والمودة إلى من يليهما من أطفال وضعفاء ومساكين. وكل ما ذكر هنا يدل على أن ثمة هداية تكوينية فطرية عامة تهدي الإنسان إلى ما يحقق غايةَ ومقصد وجوده أي سعادته.

مفهوم الفلاح

يذهب فلاسفة المسلمين ومتكلموهم إلى أن النفس الإنسانية لها قوتان: أولاها: القوة النظرية، وكمالها في المعرفة، وأعز تلك المعرفة وأشرفها معرفة المولى ﷻ. والثانية: هي القوة العملية، وكمالها في فعل الخيرات والطاعات وخدمة المولى ﷻ.

ترد كلمة الفلاح بمشتقاتها المتباينة في عدد من نصوص القرآن الكريم موصولة ومتعلقة، أي في سياق سلوك إنساني يقع في دائرة الأخلاق العملية، وبما يتضمن الأفعال الإرادية المحمودة كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(المؤمنون:١-٣). وهكذا إذا تتبعنا الآيات نجدها قد خصت الفلاح والفوز لمن اتصفت أخلاقه العملية بهذه الطائفة من الآداب القرآنية، وكذلك في قوله تعالى ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٣٠)، ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(البقرة:١٨٩). وبصفة عامة فإن صفة الفلاح تجيء في القرآن موصولة بهذه الأخلاق العملية سعيا للسمو بالسلوك الإنساني.

مفهوم الطمأنينة

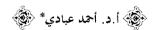
الطمأنينة تعنى السكون والاستقرار؛ فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾(الإسراء:٩٥) أي مستقرين. وتستعمل في سكون القلب، فالقلب المطمئن ساكن بإيمانه بالله ﷻ، يجري على قرار من النفس وسكون من الفكر. ولقد أخبر القرآن الكريم عن مقام النفس المطمئنة، وهي التي أشار إلى كونها تمثل غاية سمو النفس الشريفة في مسيرها وقصدها نحو الله ﷻ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠)، وهذا التسامي والترقي يجيء في منحى كمالات قوى النفس النظرية التي هي غاية كمالها ورقيها على صعيد المعرفة. وأعزُّ تلك المعارف -كما أشرنا- وأشرفها معرفة الحق ﷻ، وهي المعرفة الربانية أو اللدنية كما يسميها الإمام أبو حامد الغزالي، التي تبدأ من حيث ملاحظة عجائب آثار الحق ﷻ لتقود إلى نقاء وصفاء تصورات النفس الكلية تجاه الوجود والحياة، ومن ثم الترقي في مدارج المعرفة سموا لبلوغ كمالات قوى النفس النظرية. ونلمح هذا المعنى في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(البقرة:٢٦٠). فالإيمان الصادق يحرك أشواق الروح وتطلعاته لمعاينة أسرار القدرة الإلهية؛ مما يحيل الإيمان لتجربة شخصية ذاتية مباشرة يحياها الوجدان ويفيض الحس ويطمئن بها القلب، فلا تتم للنفس الإنسانية سكون أو اطمئنان إلا في ظل الإيمان الراسخ بالله والرقي إلى مقام المعرفة الربانية الحقة، ويؤدي هذا المقام بالمؤمن إلى تقوية الإحساس بالله والأنس بجواره، وهذا هو غايةُ ومقصد المعرفة الربانية، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨). ■

لا تتم للنفس الإنسانية سكون أو اطمئنان إلا في ظل الإيمان الراسخ بالله والرقي إلى مقام المعرفة الربانية الحقة، ويؤدي هذا المقام بالمؤمن إلى تقوية الإحساس بالله والأنس بجواره، وهذا هو غايةُ ومقصد المعرفة الربانية.

(*) جامعة الخرطوم، قسم الفلسفة / السودان.

الحوار بين الحضارات

مقاربة تصنيفية، ومقترحات منطلقية



أ.د. أحمد عبادي*



تعيش البشرية فوق كوكب صغير يسمى الأرض، وهو على شساعته لا يعدو كونه نقطة زرقاء سابحة في الفضاء. وكوكبنا بحكم اكتشاف سكانه عددا من الإمكانات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي الزمان وتيسّر التأثير والتأثر قد أضحى أشبه بخلية النحل الهائجة المائجة، وأضحت عليه هذه المجموعة البشرية أشبه بالبويضة الملقّحة التي يمكن أن يتولّد عنها كائن إنساني سوي وخيّر، كما يمكن أن يتولد عنها مارد مدمر لذاته وللحياة من حوله.

وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرّد اختيار إلى صيرانه ضرورة؛ ولاسيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في كل العصور التي مضت. فنحن نمتلك من القنابل النووية والذّرية والهيدروجينية وغيرها، ما نستطيع به تدمير الأرض آلاف المرات وليس مرة واحدة. ويكفي تسلل قناعة مظلمة لواذا إلى عمق الإنسان فتستقر فيه لكي يدمر هذا الكويكب الذي ليس لنا ملجأ سواه؛ فلا أرض -راهنا- سوى هذه الأرض يمكن أن تُقلّ النوع البشري.

وقد أثبتت تجربتنا التاريخية المشتركة أن الرشد الذي برهنا عليه مجتمعين لم يبلغ درجة الكفاية، حتى في إطار تديناتنا المتنوعة، فالقراءة للتاريخ تثبت أن تعاطينا مع الوحي وهداياته لم يكن فيه -في الأغلب- التوجّه لهذا الوحي لنستمد منه أجوبة عن

سؤالاتنا، وإنما كان تعاملنا معه -على الأعمّ- تعاملا استعماليا من أجل أن ننصر به قضايا ضيقة، أو أن نقضي به أغراضا زائلة، وقد يقارف هذه القضايا وهذه الأغراض في كثير من الأحيان إضرار بالذات أو بالمحيط، أو بهما معا.

وقد كانت الفترات -على قلّتها- التي سلّم فيها الإنسان فعلا للوحي ولهدايته وأنواره بتوجه وفهم سليمين عبر التاريخ البشري أكثرَ الفترات سلاما وعطاء ورشادا وتعاونا على البر والتقوى.

إننا في هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى فتح الأبواب على الواقع كما هو، لنتمكّن من إدراكه على ما هو عليه، لنكون أقدر على تصييره ذلك الواقعَ الذي نحلم به، فكلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان. وبالتالي فإنه لا بد من فتح هذه المنطقة ودخولها لاستكشافها وتنقيتها وإعادة ترتيبها؛ وهي خمسة أمور لا يمكن تصوّر تحققها بدون اعتماد مستلزماتها ومقتضياتها، وفي طليعتها الأساس المعرفي البحثي العلمي.

ففتح رمّانة المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات والقيم والمعايير، وإحصاءُ حبّاتها عددا، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها في حياة الناس أفرادا وجماعات، أمر لا يمكن بدون ركوب مَركب المعارف المساعِدة، والتشمير للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة.

كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهلِ ومكونات الحضارات المختلفة.

أما الاستكشاف، فلا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهاجية ولغوية للتعايش مدخل الاستكشاف، وكذا يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصنائع والشرائع والنظم، والتي هي جميعا مُتجلّى المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّز للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستوفي للمعطيات مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان أن يبنيها بناء.

كما لا يمكن تصور القيام بتنقية، دون امتلاك ناصية المعرفة الدقيقة بالأصول والمنطلقات، إذ لا تعدو التنقية في نهاية المطاف تصفية الأمور ممّا يشوبها عبر الزمن وردّها إلى أصول نشأتها الأولى دون تمحّل ولا تكلّف، كسحاً للألغام المفاهيمية، والإعاقات التصورية التي قد تتسرّب إلى هذه الأنساق خلال مساراتها التاريخية وتقلباتها الاجتماعية، فتحجمها وتلجمها أو تفتحها على سراديب الكلّيانية والعنف الحضاري والدمار المدني.

كلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجِّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان.

أما إعادة الترتيب، فلا يجوز أن تكون خارج الثوابت تنصيصا وتقصيدا في مراعاة تامة للواقع وتطلباته، واعتبارٍ لمختلف المآلات التي قد تنجم عن هذا الترتيب أو ذاك.

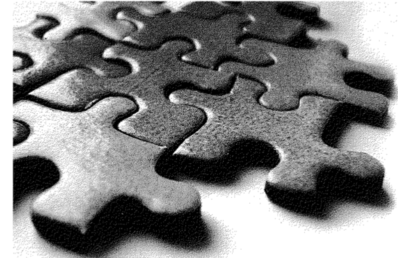
أنواع المحافل الحوارية

غير أننا حين ننظر إلى المحافل الحوارية في عالمنا اليوم فإننا لا نجدها تتجاوز خمسة أنواع رئيسة من المحافل؛ معظمها في منآة عن هذا الكدح الخماسي المشار إليه آنفا:

١- المحافل التوظيفية

في هذا النوع من المحافل يتم توظيف الحوار من أجل الإبقاء على أمور معينة، أو من أجل الوصول إلى أغراض محددة.. كما يغلب على المقولات والأفكار التي تروَّج في هذه المحافل كونُها صدى لما يحمله المنظِّمون من قناعات؛ إذ يتم البحث في دائرة "الآخر" عمن سوف يتكلم بما في أذهان المنظمين وعما يشتهون، وليس عمن يحمل أفكارا وقناعات "أخرى"!

وهذا المنحى التوظيفي تندرج ضمنه جلُّ الدراسات التي تم



القيام بها خدمةً للمنظور الاستعماري، أو خدمةً لأغراض ومنافع تجاريـة واقتصادية صرفة. وهو ما قامـت به الدول عبر التاريخ مرورا بالفراعنة ووصولا إلى يومنا هذا؛ حيث تدرس المعتقدات والقناعات ضمن هذه المقاربة التوظيفية بغرض التسلل إلى المعمار الذهني للآخـر بغية تأطيره والتحكم فيه.. ومن هنا فإن المحافل التي تنحو هذا المنحى توظيفية بامتياز.

٢- المحافل الدعوية التبشيرية

وهناك منحى ثان، يمكن أن نصطلح على تسميته بـ"المنحى الدعوي أو التبشيري". وهو منحى لا تكاد تبرأ منه ملة من الملل؛ ويمكن أن نجده في المسيحية كما يمكن أن نجده في الإسلام، أو في الهندوسية أو البوذية أو في كل الديانات ذات النـزوع التبشيري، ومن ثم فإن الحوار في هذه المحافل لا يكون تعارفيا استكشـافيا بقدر ما يكون مستهدفا ضم الآخر بل أحيانا هضمه.

٣- المحافل الأكاديمية

الضرب الثالث من المحافل يمكن أن نصطلح على تسـميته بـ "الأكاديمي"، حيث يُعنَى فيه الباحث بمعرفة الأمور والوقائع والمعطيات كما هي، يكشف عنها ويتركها بحياد متاحة للتوظيف من طرف أي من المحافل الأخرى. وهو محفل له إيجابياته ويحتل المنـزلة بين المنـزلتين: التوظيفية والتعارفية.

٤- المحافل التوليفية المستهدفة لتحقيق التعايش

هذا النمط الرابع من المحافل الحوارية يسعى إلى البحث عن نقاط الالتقاء والقواعد المشـتركة مـع "الآخر" من أجل وضع حد للصراعات العدمية؛ فهو بهذا يمارس التوظيف، لكن بطريقة إيجابية تروم حقن الدماء، وصيانة الأرواح، واستبقاء المصالح وعيا بضرورة الإبقاء على التوازنات بشـكل أو بآخر دون الغوص في معرفة الآخر ومحاولة فهمه فهما عميقا صادقا وصحيحا وإفادته والاستفادة مما عنده.

٥- المحافل المعرفية التعارفية

وهي أكثر هذه المحافل ندرة، إنما المحافل التي تريد أن تستفيد من الحكمة أينما كانت؛ إذ الحكمة ضالة الباحث المحاور فأينما وجدها فهو أحق الناس بها. ونحن لا نتحدث هنا عن النص أوعن العلاقـة الإيمانية به ولا عن تصديقه أو هيمنته، وإنما نتحدث عن الحكمة التي تبلورت من خلال التعامل مع النصوص في كل الديانات.

والحاصـل أن المرء يمكن أن يتعلـم الكثير ضمن هذه الخانة كما يمكن أن يتعلم منه الناس. وثمة حاجة ماسـة للعمل ضمن هذه المحافل حتى يُرَقّى فيها الحوار نحو أن يصبح تعارفيا؛ يتأسس على البراديغمات التي تشجع على العبور نحو الآخر والإفادة منه، مثل براديغم وحدة البشـرية أو الأسرة الآدمية الممتدة، وبرديغم مؤقتية الوجود الإنسـاني ومؤقتية الكون كله، وبرديغم نسـبية الإنسان ونسبية معارفه وبرديغم التكامل وغيرها من البرديغمات المؤسسة. وهذا النموذج المعرفي التعارفي نموذج مستوعِب متجاوز مقارنة مع "نموذج التسـامح" السائد. والذي يعتريه قصور؛ لأن التسامح (Tolérance) يفيد أنني أسجل عليك أشياء أتحفظ عليها ولا أقبلهـا فأتفضل وأتغاضى عنها مـن أجل أن أصل إلى خانة التوظيفية أو التبشيرية أو ربما التوليفية.. ومن ثم فإن التسامح يبقى محدودا ليس بإمكانه تجاوز هذا المسـتوى. أما النموذج التعارفي فهو أكثر قابلية للتعاطي والإثراء الإيجابيين.

وهو نموذج نجد التعبير عنه والتوجيه إليه بصيغ متعددة ومختلفة في جل الديانـات، ومن أجلى التعبيرات عنه عندي، ما نجده في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وعند التأمل فإننا نجد في كل الديانات تدريبات علـى التعارف تختلف في شموليتها واسـتيعابيتها على التعارف.

والنموذج التعارفي ينطلق مـن حقيقة أن كل طائفة من بني آدم قد عاشـت في سـياقات مختلفة حَررت فيها كفاءات معينة وأطلقتهـا، بحيـث إن التحديات التي تفرضها هذه السـياقات تضغط أزرارا في الكينونة الإنسـانية، فتنشـئ أضربا من المعرفة ومن الحكمة عادة ما لا تكون عامة، وبشكل يجعل باقي بني آدم محتاجين للاستمداد منها. إن هذا النموذج يعترف بأن كل طائفة من الآدميين قد بلورت في مجالاتها حكمة خاصة واستثنائية يمكن -من خلال تشغيل نموذج التعارف- أن يتم تقاسمها مع الآخرين

وتعديتها إليهم، كما يمكن من خلال هذا التشغيل ذاته أن يؤخذ عنهم ما بلوروه هم أيضا من الحكمة ومن المعارف.

وفي النموذج الإســـلامي يوجد هذا بقوة وإشراق كبيرين في عبادة الحج، ففي قوله تعالى لنبيه إبراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٧)، يعني يفدون لكـــي يتجمعوا حول نقطة معينة هي الكعبة. وهذه الكعبة سميت كذلك لأنها مكعبة، لا أقل ولا أكثر، وحين تصل إلى هذه النقطة تجد أن الصف ليس صفا مستقيما وإنما هو دائري، وهذه الدوائر يصطف وفقها المســـلمون وينظرون من مواقعهم فيها إلى الكعبة التي لا تعدو كونها ســـهما مؤشرا على جلال الله وقدرته، وحضوره وعنايته.

والزاوية التي تراها أنت من الكعبة؛ حجرا أسود كانت أم ركنا يمانيا، أم ركنا شاميا... لا يستطيع غيرك رؤيتها؛ لأنك تنظر من نقطة لو تزحزحتَ عنها بقدر أنملة فسوف تتغير الرؤية والبانوراما كلها، ولذلك فأنت مدعو ضمن هذه الشعيرة / الركن، التي هي الحج، إلى أن تطوف، وأن تنظـــر إلى الزوايا الأخرى من النقط والمواقـــع التي يقف عندها الآخـــرون... وطوافك لن يكون في نقطة رؤية واحدة، بل سوف تجتمع في أشواطك السبعة كثير من النقط التي تكون ضمن المطاف. غير أن هذا يستدعي النباهة؛ إذ لا تعـــارف دون انتباه لما تراه، وبعد ذلك يتم الصعود إلى عرفة. ولم يُسمَّ ذلكم الموقف عرفة من عبث، وإنما لوجود التعارف فيه. وشـــعيرة عرفة لا يحل إبانُها إلا وقد تشابهت الأشكال والملامح وتمازجت الروائح؛ إذ لا حق لك بعد يوم التروية في اســـتعمال الطيب، ولا حق لك في الحلق، كما أنك تجتنب لبس أمور الزينة والتميّز وتمتزج مـــع غيرك من الحجاج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق كأنك وُضعتَ معهم كلهم في قِـــدْرٍ واحدة تَمَّ تحريكها لكي تمتزج فيها التوابل وتكون الطبخة من ثم طبخةً واحدة!

حين ننظـــر في النصوص التي فيها حديث عن ما بعد مرحلة التعارف بعرفة نجد شيئا اسمه "الإفاضة"، ونجد أن الناس يُفيضون ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُـــرُوا اللهَ﴾(البقرة:١٩٨). والإفاضة توحـــي بأن ثمة قوةً تُذلل العقبات التي في طريقها: كجمرة العقبة التي ليس رجمها رجما لإبليس، وإنما هو تذليل للعقبات التي تحول دون الناس والتعارف فيما بينهم ومن ثم التعاون على البر والتقوى سواء من باطن أم من ظاهر.

وفي هذا رسالة للبشرية جمعاء لتحقيق الامتداد النابض لنفَس التعارف ذهابا إلى الكعبة وإيابا منها، حيث يلتقي الناس من كل فج عميق فيتعارفون، ويتشـــاطرون أضرب الحكمة المتعالية، ثم يعودون بها لأقوامهم ويأتي آخرون... وهكذا دواليك، في حركة تحاكي نبض الفؤاد.

الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة

ويحق لنا من خلال هذا النموذج المعرفي أن نسائل الواقع البحثي في مجـــال الأديان المقارنة... فلنذهب مثلا إلى مكتبة موريال، أو مكتبـــة كمبريدج أو مكتبة جامعـــة محمد الخامس ولنبحث عن صورة الآخر في الديانات المختلفة، فسوف نجد أنها تندرج جميعها -إلا ما استثني- ضمن الخانات الثلاثة الأولى؛ كما سوف نجد أن البحوث التي تندرج ضمن الخانة الرابعة قليلة، أما الخانة الخامسة فحدث عن الندرة ولا حرج.

مما يعني أن صورة الآخر في الكتابات التي تدرّس في مقررات تاريـــخ الأديان تكـــون في أغلبها إما توظيفية، أو تبشـــيرية، أو تقريريـــة؛ تقرر الواقع وترصده كما هو. وفي حالات ناذرة جدّا تكون توفيقية؛ ولذلك فإن الباحثين الجادين الذين يريدون بالفعل البحث عن تجليات هذا النموذج المعرفي التعارفي في الدراســـات والأبحاث والكتابات المختلفة سيجدون فراغا كبيرا.

كيف يمكـــن إذن أن نطمح للقيام بهذه التأسيســـات ضمن الخانة التعارفية في المقـــررات التي تدرس للطلبة، وفي التكوينات التي تعطى للقساوســـة أو تعطى للأئمة أوللحاخامات، أولأهل الديانات الأخرى؟ كيف يمكن أن نوصل البعد التعارفي إلى هذه التكوينات لكي لا يبقى بُعدا شعاراتيا، ويصبح واقعا حيا معيشا؟

إن هـــذا يصعـــب أن يتأتى بغير المقاربـــة البرهانية المخلصة سعيا إلى اســـتخلاص وتحرير البحث العلمي من الشواهدية (أي طلب الشهادات)، ومن البراغماتية الجامدة وكذا من التوظيفية؛ فالمقاربة الشـــواهدية للدراســـة والبحث قد جنت على البحث العلمي ما جنت، وهذه قضية تحتاج للعلاج من النواحي المنهجية والتوجيهية وكذا التشريعية.

أما القضية الثانية التي تستدعي العلاج فهي النفعية؛ فالمعاهد العلمية تحتاج -من أجل البحث- إلى تمويل، غير أن هذا التمويل غالبا ما يكون مشروطا؛ فالمؤسســـات الداعمة تقول للباحث، بطريقـــة أو بأخرى: إذا أردت أن أعطيـــك هذا الدعم أو هذه المنحة البحثية فيجب أن يســـتجيب بحثك لجملة من المواصفات

البراغماتية التي أتوخاها "أنا"، ومن ثم فإن الأبحاث والأعمال التي تنتج في هـــذه الإطارات تدخل ضمن الخانة التوظيفية بامتياز. وهو الأمر الذي يجب تجاوزه بإدخالِ بُعد العمل الاجتماعي في العمل البحثي.

إن كثيرا من الناس لا يتصورون العمل الاجتماعي خارج الأمور المتعلقة بالمجاعات والكوارث وقضايا اجتماعية كالصحة على سبيل المثال، بيد أن العمل الاجتماعي في المجال البحثي محوري أيضا وبالغ الأهمية.

واعتماد المقاربة البرهانية يقوم على ركنين:

الركن الأول: وهو عود على مـــا ذكرناه في مطلع هذا المقال، ومفـــاده: وجوب إدراك أن هذا الكوكب الأرضي كوكب محدود، وأن محدوديته تفرض التعايش، وأن هذا التعايش يجب أن يكون تعايشا مســـتداما، ولكي يكون كذلك فلا بد أن تكون لدينا القدرة على معرفة الآخر وفهمه، وأن نعينه أيضا على معرفتنا وفهمنا من خلال التواصل معه حتى نستطيع التعامل والتعاطي والتعاون الإيجابي على البر والتقوى.. فحينما نستطيع بحثيا أن نبرهن على أن هذا الخيار لا يمكن التخلي عنه، وأنه أمر ضروري وشرط لا محيد عنه من أجل كل تعايش إيجابي وبنّاء لنا مجتمعين فوق كوكبنا، فسوف نكون قد برهنا بالفعل على ضرورة القيام بالبحث والدراسة والحوار ضمن الخانة التعارفية.

أما الركن الثاني: فهو الركـــن الوظيفي؛ والذي يدرس التاريخَ ســـوف يجد الشواهد المتعددة على وظيفية المقاربة التعارفية؛ فحينما سادت هذه المقاربة في بغداد كان فيها من الازدهار ما كان، وكذا حين ســـادت هذه المقاربة التعارفية في قرطبة وفي أصفهان وشيراز وسمرقند ودلهي وغيرها... وجلي أن الانتصار لنجاعة هذه المقاربة لا يحتاج إلى كثيرِ مرافعة، فنحن إن لم نتعايش سوف نفوت فرصا ضخمة للبناء المشترك، وإن لم نحذر فقد يدمر بعضنا بعضا.. في حين أننا إن تعايشنا ازدهرنا جميعا، واستفاد بعضنا من بعض، ونفع بعضنا بعضا...

وإن صـــحّ لنا -انخراطا في اســـتمرار البحـــث في هذه القضية المحورية- أن نختم بسؤال، فليكن هو الآتي: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة التعارفية في الجوانب البحثية والتكوينية؟ وتجاوزِ العادات والممارسات الستاتيكية أو السلبية التي لا تزال بهذا الصدد تسود في محافلنا الحوارية وفي جامعاتنا. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

يا دنيانا العجوز

إلى العجز ركنتِ، وفي الموت رغبتِ..!
لكنّ بطنكِ لا زال وَلاَّدًا،
ورَحِمكِ لا زالتْ معطاءً..!
فالشجر الباسق، والنور الرائق،
من جوف الظلام آتٍ...
فالظلم إذا اشتدَّ انفرج،
والبذر إذا أترب أثمر...
ودورة الحياة عليكِ ستدور،
وبأنفاسها من جديد ستقومين،
ورسالتَكِ العمرانية ستؤدّين..!

* * *



بياض اليقين

عبد العزيز المقالح*

أفوّضُ أمري إلى اللهِ
أصعدُ معراجَ روحٍ رأتْ موتَها
قبلَ أنْ يستحمَّ غبارُ المدينةِ
في الجفنِ،
يختارَها زمنٌ
ومكانٌ بلا رغبةٍ،
ويكونَ لها جسدٌ
ولسانٌ وعينانِ،
كانتْ ترى،
وتنوحُ وتشكو؛
رأتْ كائناً يتحرَّكُ فوقَ هديرِ الترابِ،
ويحملُها بينَ جنبيهِ..
يجري بها تارةً في حريرٍ منَ الضوءِ
مغمورةً بظلالٍ منَ العطرِ،
يجري بها تارةً في كهوفٍ منَ الرُّعْبِ
مبتلّةً بصقيعٍ منَ الخوفِ،
شاردةً ذاهلةً.
أفوّض أمري إلى اللهِ
أصعدُ منتشياً في ارتعاشِ القصيدةِ،
أخلعُ عنّيَ –في عَجَلٍ–
جسداً أرهقَتْني مخاوفُهُ
ونوازعُهُ،
أوجعَتْني انطفاءاتُهُ
حينَ يعشقُ أبّهةَ الحزنِ
حينَ يُداري مغامرةً لا تليقُ بهِ،
يا رفيقَ طفولتِنا

وصِبانا
ومأوى الكهولةِ،
يا أنتَ يا جسدي..
كيفَ أغلقتَ نافذةَ الرُّوحِ
أطفأْتَ أعذبَ ما فيكَ،
أغمضتَ قلبَكَ،
في خندقٍ مفعمٍ بالغوايةِ،
ألقيتَ كَنْزَ هواكَ
وفي غسقٍ لا قناديلَ في سقفِهِ،
تتخبَّطُ،
تقتاتُ أحلامَكَ الفاشلَةْ؟
أفوّضُ أمري إلى اللهِ،
أسألُهُ عنْ عدوٍّ منَ الناسِ
كانَ صديقي،
وأسألُهُ عنْ صديقٍ منَ الناسِ
كان عدوّي،
وعن كتبٍ كنتُ أقرأُها،
فيزيدُ بفضلِ القراءةِ جهلي،
وعن بلدٍ كنتُ أحسبُهُ وطني
وأرى فيهِ أهلي،
وجدرانِ بيتٍ عتيقٍ
يُسيِّجُهُ الشوقُ والحزنُ،
عن طفلةٍ
كنتُ أعشقُ عطرَ جدائلِها
وأرى في ابتسامتِها عالَماً
فاتنَ القَسَماتِ،

وأسألُهُ...
أينَ بعدَ الذُّبولِ
يروحُ الجمالُ؟
وأينَ مصيرُ العيونِ
التي كانَ في طَرْفِها حَوَرٌ
يقتلُ العاشقينَ؟
وماذا جرى عندَ سقفِ الزّمانِ
لنرجسِ أحلامنا
وعواطِفنا الذابلَةِ؟!
أفوّضُ أمري إلى اللهِ
لم يبقَ ظِلٌّ، ولا طللٌ،
كانتِ الأرضُ ساقطةً
والفضاءُ غريباً،
ولا نبضَ للكائناتِ..
كأني الوحيدُ الذي نسيَتْهُ قرونٌ
منَ الموتِ،
أخفتْهُ في كهفِها الكلماتُ،
ولم يدرِ أنَّ القيامةَ قامتْ،
وأنَّ جميعَ الخلائقِ في قبضةِ الأبديّةِ..
ويلاهُ..
إني أفوّضُ أمري إلى اللهِ
أقرعُ أبوابَهُ
بدموعٍ تكسّرَ مرمرُها
في محيطٍ منَ الظلمةِ القاتلَةِ.

(*) أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية، جامعة صنعاء/اليمن.

الإنسان بين الشيطان والقرآن

أديب إبراهيم الدبّاغ*

الإنسان

من قاع الهوّة سُمع صوت إنسان صارخًا مستنجدًا..
ضاع قلبي، مَنْ على قلبي يَدُلُّني؟
تاهَ روحي، مَنْ على روحي يرشدني؟
وعلى نفسي بكتْ نفسي، فَمَنْ يمسح دمع نفسي؟
وعلى لوعتي ناحَتْ لوعتي، فَمَنْ يُهَدْهِدُ نَوْحَ لوعتي؟
وكُرْبَتي هَاجَتْ أنّتي، فَمَنْ يسمع أنّتي ويُفرّجُ كربتي؟
ويَومي لَقيط بين الأيام لا هوية ولا نَسَب، فَمَنْ إليَّ يردُّ هويتي وإلى نسبي يَنْسُبُني؟..

نومي أرق، وليلي قلق، وفي جنبيَّ واخزات محرقات جائحات... وأنا شبح شاحب تطويني الغواسق، والليالي الكوالح، تائهًا كملاّح يقود حُطَامَ سفينته إلى شاطئٍ بعيد المنال يغشاه الضباب والسراب والتوجس والخوف!..

الشيطان

ويحك يا إنسان.. ما أشقاك وأتعسك.. صوت عذابك صَكَّ سمع الأرضين السبع، وعويلك هزَّ -في الأسافل- الظلمات من تحت أبينا المبَجّل "إبليس".. ما خَطْبك؟! وأيُّ داهية دهياء حلَّتْ بك وقلبتْ كيانك؟!

تلتمس قلبك فلا تجده.. حسنًا لا تفزع.. هو عندي وبمعيّتي، ناديتُه، أغريتُه، فأتاني على عجل.. وعلى عجل أبحرتُ به إلى عوالمي الشيطانية لأُسَلّيَهُ وأُنسيَهُ هَمَّ نفسه.. فسقيتُه من كؤوسي، وأَكْرَعْتُهُ من شرابي.. حتى دار عقله، وانتشى لُبُّه، وغاب عن نفسه، وضلَّ عن ذاته.. ولقد اقتحمتُ جُمجُمَتَهُ وهالني ما تزدحم به من عظيم الأفكار.. وبنفخة واحدة طار كل شيء وصارتْ فارغة تعصف بها الأهواء.. لقد مررتُ بكل الأزمنة، والتقيتُ "الإنسان" في كل مكان، و لم أدهشْ لشيءٍ دهشَتي للفكر المستولي على القلب البشري كيف يتحول إلى شعلة متوقدة في دم الحضارات، وكيف يغدو معراج ارتقاء وسُلّم سُمُوٌّ للإنسان.. فحزَّ ذلك في نفسي، فشققتُ الأرض عويلاً وصراخًا، وأسرعت أطوي بحار الظلمات حتى لحقتُ به، وسلبتُه كُلَّ فكرٍ مُضِئ، وأبدلته عن ذلك حَشْوًا هائلاً من ترهات الأفكار التي لا تشحذ ذهنًا، ولا تضيء وجدانًا!.. فبَعد كُلِّ هذا الذي فعلتُه لقلبك -يا إنسان- تتهم محبتي لك، وإخلاصي من أجلك؟.. فما أَقَلَّ وفاءَك، وأكبر غدرك!..

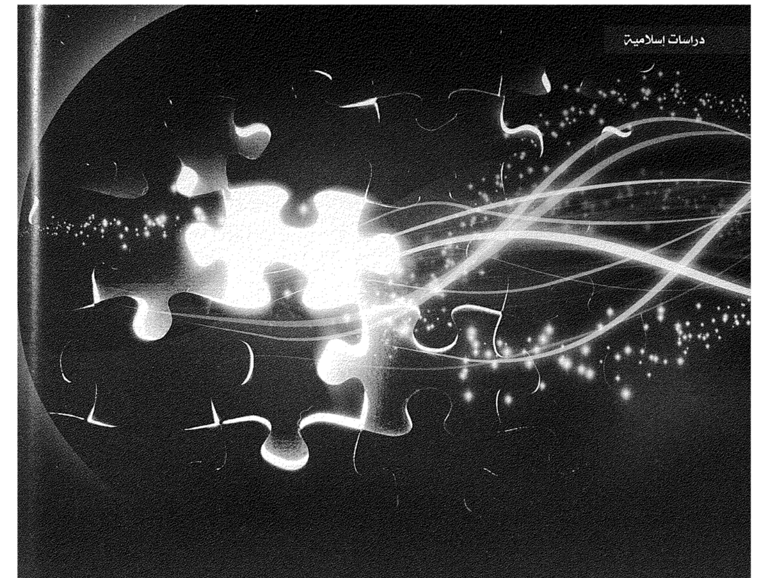
القرآن

يا إنسان!.. يا موضع نظر آياتي، يا قطعةً من روح كلماتي، يا قلبًا نازلاً من فوق سبع سموات، يا مأوى حكمتي، يا نجم سمائي، يا مقيمًا في ثنايا ضميري.. باسمك دعوتُ، وأبوابي لك فتحتُ، والأبديةَ إليكَ أَزْجَيْتُ، وأقباسًا من روحي في روحك أشعلتُ، ولغتي لك ضَوَّأْتُ، وأزليتي لك أَقْرَأْتُ!..

مَحَضْتُكَ قلبي ليخفق في قلبك، وأَعَرْتُكَ عيني لتنير في عينك.. فاسْتُرْ شَجْوَكَ، وَاكْتُمْ وجَعَكَ.. فقلبكَ السليب آيب، وروحك الشريد إليك عائد.. لا تخفْ، ولا تَذُبْ أَسًى وحسرةً، فَلَنْ تموتَ روحك ولو باتَتْ تتعذّبُ ألفَ سنة في جحيم الشيطان.. ولن تصهر النيران جوهر ذاتك ولو سلّطَ عليه الشيطانُ كُلَّ شواظات ذهنه الجهنّمي.. يخطئ اللعين إذا هو ظنَّ أنَّ الهلاك مقدور لك ولا مناص لك منه!..

عُدْ إليَّ -يا إنسان- فأغمرك بنوري، وأجلببك بحبوري، وأنشر عليك رحمتي، وأرتفع بروحك، وأسمو بعقلك، وأُرْهِف حسَّك، وأُهذِّب شعورك، وأُحرّرك من قَيْدَي زمانك ومكانك، وأُنقذك من الفناء، وأَصِل حَبْلَك بحبل البقاء، وأَستلّكَ من العدم، وأهديك الوجود، وأخلّصك من الزوال، وأدفعك إلى الخلود.. وأجعلك كونيَّ السَّعَةِ عَالَمي النظر، إنسانيَّ النزوع، عظيم النفس، أخلاقي السلوك، مُتَجَدِّد الذّات، لا تَتَعتّق أبدًا، ولا تتقادم سرمدًا.. شبابك دائم، وروحك لا تشيخ، وقلبك لا يَبْلَى!.. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



القرآن العظيم وقضية الأمة

أ.د. فريد الأنصاري*

إن السلام العالمي لن يكون إلا وليد النور الإلهي، النور الذي يشرق في قلوب المؤمنين بالخير والجمال؛ بما يسكبه القرآن في وجدانهم، من معاني الحق والعدل والحرية! ودون ذلك معركة يخوضها القرآن بكلماته ضد كلمات الشيطان، وإلا بقيت البشرية اليوم تغص حلاقيمها بفاكهة آدم إلى يوم الدين. والقرآن وحده يكشف شجرة النار ويتلف فاكهتها الملعونة.

إن هذا القرآن كلام غير عاد تماما، إنه كلام خارق قطعا، ليس من إنتاج هذه الأرض ولا من إنتاج أهلها، وإن كان عليهم تنزل ومن أجلهم تلي في الأرض. إنه كلام الله رب العالمين، الذي قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). إنه الكلام الذي لم يملك قبيلُ الجن إذ سمعوه إلا أن: ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأحقاف:٢٩-٣٠). وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

قوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان

إن كلمات هذا القرآن -لو تعلمون- قد تنزلتْ من السماء

محملة بقوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان؛ لأنها جاءت من عند رب الكون، تحمل الكثير من أسرار الملك والملكوت، وهي جميعها مفاتيح لتلك الأسرار؛ بما فيها من خوارق وبوراق لقوى الروح القادمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٤-٦).

إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن يقرأ كلاما وكفى، تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا.. وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون، فيشاهد من جلال الملكوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهنالك يتكون ومن هنالك يتزود. فآه ثم آهٍ لو كان هؤلاء المسلمون يعلمون! وصدق الله جل وعلا إذ قال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠). نعم؛ يا حسرة على العباد!

أوَليستْ كلمات الله هي التي امتدت من هذه العبارات التي نتلوها إلى أعمقَ مما يمكن أن يتصوره الخيال، وأبعد من أن يحيط به تصور بشري من مجاهيل الوجود؟ ألا تقرأ في كتاب الله ذلك صريحا رهيبا؟ فاقرأ إذن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧). ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

من اليقين إلى التمكين

فأين ينتهي هذا القرآن إذن؟ إنه لا ينتهي أبدا. ويحك يا صاح! أليس تعلم أن كلام المتكلم صفة من صفاته؟ ومتى كانت صفات الله لها نهاية؟ وهو جل جلاله، وعزّ سلطانه رب العالمين، المحيط بكل شيء. فكيف إذن بمن تخلّقَ بهذا القرآن وتحقق به في نفسه ووجدانه، وصار جزءا حقيقيا من حركة القرآن في الفعل الوجودي، وهذا القرآن تلك صفته وحقيقته؟ أوَليس حقا قد صار جزءا من القَدَر الإلهي، الذي لا يتخلف موعده أبدا؟ أوَليس قد صار جنديا بالفعل من جنود الله، ممدودا بسرِّ ملكوت الله في السماء وفي الأرض؟ يحمل وسام النصر المبين من اليقين إلى التمكين. وهذا عربونه بين يديه الآن: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(الصافات: ١٧١-١٧٣).

وتَدبرْ كيف أن "كلمته" تعالى هي فعله القَدَريّ النافذ حتما، الواقع أبدا. ذلك أن كلام الله فوق كل كلام، إن كلامه تعالى خَلقٌ وتكوينٌ وإنشاء. إنه صُنعٌ فِعْليٌّ للموجودات والكائنات جميعا.. من المفاهيم إلى الذوات، ومن الذرات إلى المجرات. وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨٢-٨٣). إنه -جل وعلا- يأمر العدم فيكون وجودا، فيكفي أن تتعلق إرادته بوجود الشيء ليوجد بالفعل. وإنما كل فعله تعالى في الخلق والصنع والتكوين مجرد "كلمة"، إنها فعل الأمر: ﴿كُنْ﴾ الآمر بالتكوُّن والتكوين، والتجلي من العدم إلى الوجود.

إن كلماته تعالى لا تذهب سدى في الكون، إنها بمجرد ما تصدر عنه -جل شأنه- تنشأ عنها ذوات وحركات في تدبير شؤون المُلك والملكوت. إن كلامه تعالى إذَنْ خَلقٌ وتقدير، وأمرٌ وتدبير.[1]

ومن هنا كان وصف الله لعيسى عليه السلام -كما سبق بيانه- بأنه "كلمة الله": ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). وإنما جاء ذلك في سياق الرد على الذين زعموا أنه عليه السلام ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- فقوله: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ دال على أنه تجلي إرادة الله من الخلق والتكوين! وهو ما بيّنه تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩). ومن هنا كانت البشرى لمريم "كلمةً" كلمة غيرت مجرى التاريخ، وبَنَتْ صرحا شامخا في تاريخ النبوة! قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(آل عمران:٤٥). فكان المسيح عليه السلام هو الكلمة! القضية إذن هي في: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنها "كلمة الله".[2]

فكلام الله تعالى هو التعبير عن إرادة الخلق والتكوين، والتعبير عن قضائه الرباني وقَدَره الوجودي، وإن هذا القرآن العظيم هو ترجمانه الأزلي، ودستوره الأبدي!

المتخلق بالقرآن من جنود الله

وعليه؛ فإنك إذ تتخلق بالقرآن وتتحقق بمعانيه؛ تنبعث أنت نفسك جنديا من جند الله؛ بل أنت آنئذ جزء من قَدَر الله! وتدبر كيف جعل الله من أتباع موسى عليه السلام أداة قدرية شق بها البحر! تأمل هذا جيدا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(البقرة:٥٠). فالله جل جلاله فرق البحر ببني إسرائيل لما كانوا مؤمنين، ولم تكن عصا موسى إلا أداة للفرق، أما العامل الفاعل - بإذن الله - فإنما هو عزائم الإيمان التي استبطنها كثير من أتباع موسى فكانوا جزءا من الخارقة نفسها ولم يكونوا غيرها! فتأمل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ هكذا: ﴿بِكُمْ﴾ وليس "لكم"! وإن كان معنى هذه متضمَّنا في الأولى، ولكنَّ القصد بيانُ أن العبد إذا صار وليا لله كان أداة بين يدي الله -سبحانه- في تنفيذ قدَره في التاريخ! واقرأ إن شئت ما ورد في الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب" إلى قوله عنه: "فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" (رواه البخاري).

ألا يا حسرة على العباد حقا! وعلى هؤلاء المسلمين بشكل خاص!

وإذن؛ فإن هذا القرآن لو صرَّفه أهلُه حركةً في الأرض لكان أقوى من أن تثبت أمامه كلمات الشيطان وسحر الإعلام، بل هو الحق الذي قال فيه الحقُّ جل جلاله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء:١٨). لا طاقة لكهان السياسة ببرهانه! ولا قِبلَ لدجاجلة الإعلام بسلطانه! ولا ثبات لطاغوت الأرض أمام رجاله! ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). وكيف لا؟ وهو قد جاء بفهرست الوجود كله! كيف وقد تنزَّل بديوان الكون كله! وإن ذلك لقولُ الحق جل علاه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨). قال: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما جاءت الآية في سياق الخَلق والتكوين لا في سياق التشريع كما توهم بعضهم! فهو شمول أوسع من مجرد الأحكام والحدود بكثير، شمول يسع العمران البشري كله، بل يسع عالم الملك والملكوت بما امتد إليه من غيب مجهول!

إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا.. وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به، ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون.

الدلالات الرمزية لقصة موسى عليه السلام

إن القرآن عندما يأخذه الذين ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾(البقرة:١٢١) يكون بين أيديهم نورا يبدد ظلمات الضلال، وزلزالا يخسف بحصون الإفك والدجل أنى كانت، ومهما كانت! واقرأ قصة موسى مع سحرة فرعون فإن فيها دلالة رمزية عظيمة على ما نحن فيه، في خصوص زماننا هذا! ذلك أن "كلمة الباطل" كانت تمثلها آنئذ زمزمات السحرة، فتجردوا لحرب كلمة الحق التي جاء بها موسى، وخاضوا المعركة على المنهج نفسه الذي يستعمله الباطل اليوم، إنه منهج التكتلات والأحلاف! تماما كما تراه اليوم في التكتلات الدولية التي تقودها دول الاستكبار العالمي ضد المسلمين في كل مكان!

اقرأ هذه الكلمات مما حكاه الله عن سحرة فرعون لما قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(طه:٦٤).. إنه إجماع على الكيد، كهذا المسمى في السِّحر الإعلامي المعاصر: بـ"الإجماع الدولي" و"الشرعية الدولية" والمواجهة لا تكون إلا بعد جمع كلمة الأحلاف وصنع الائتلاف؛ لمحاصرة الحق من كل الجوانب ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ثم يكون توريط المشاركين وتورطهم في الغزو بصورة جماعية، ولو بصورة رمزية! وذلك للتعبير عن "الصف" في اقتراف الجريمة، فيتفرق دم المسلمين في القبائل! قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ وتلك والله غاية دول الاستكبار العولمي الجديد، التي يصرح بها تصريحا: السيطرة على العالم بالقوة! والتحكم في مصادر الخيرات والثروات!

ولكن أين أنت أيها الفتى القرآني؟

أنت هنا!.. اقرأ تتمة القصة وتأمل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۞ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٥-٦٩). إن القرآن الذي بين يديك أشد قوة من عصا موسى قطعا! فلا تبتئس بما يلقون اليوم من أحابيل ثقافية وإعلامية وسياسية حَذارِ حَذارِ! وإنما قل لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾.. وَتَلَقَّ عن الله كلماته بقوة، أعني قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ وبادر إلى إلقائها بقوة، كما تلقيتَها بقوة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ إنَّ كلمات القرآن عندما تُتَلقَّى بحقها تصنع المعجزات! فإذا أُلقِيَتْ بقوة أزالت الجبال الرواسي، من حصون الباطل وقلاع الاستكبار! ولذلك قال الله لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(النمل:٦). وأمره بعد ذلك أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً! وهو قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢). والمقصود بمجاهدة الكفار بالقرآن: مواجهة الغزو الثقافي والتضليل الإعلامي بمفاهيم القرآن وحقائق القرآن.

إن تلك الثقافة وذلك التضليل هما اللذان يجعلان الشعوب تقبل أن تكون حقولا لتجريب أحدث أسلحة الدمار والخراب! إن العبد لا يكون عبدا تحت أقدام الجلاّد؛ إلا إذا آمن هو أنه عبد! ووطن نفسَه للعبودية! مستجيبا بصورة لاشعورية لإرادة الأقوياء. وذلك هو السحر المبين. والقرآن هو وحده البرهان الكاشف لذلك الهذيان، متى تلقته النفس خرجت بقوة من الظلمات إلى النور. فيا له من سلطان لو قام له رجال!

إن المشكلة أن الآخرين فعلا يلقون ما بأيمانهم، فقد ألقوا اليوم "عولمتهم"، لكننا نحن الذين لا نلقي ما في أيماننا، ويقف المشهد -مع الأسف- عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾(طه:٦٦-٦٧)، ثم لا يكتمل السياق، وتلك مصيبتنا في هذا العصر.

كلمات القرآن تصنع الرجال

نعم، إن كلمات القرآن -عندما تؤخذ بحقها- تصنع رجالا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض. ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسموا بـ"أهل الله وخاصته"، وبهذا يتحولون إلى قَدَر الله الذي لا يرده شيء في السماء ولا في الأرض، فيُجْري الله ﷻ بهم أمره الكوني في التاريخ. أولئك الذين تحققوا بمعية رسول الله ﷺ تعلُّما وتزكيةً: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩).

إن كلمات القرآن هي السلاح الأوحد لمواجهة تحديات هذا العصر، إنها تتحدى اليوم -بما تزخر به من قوى غيبية- العالَمَ كله، فهل من مستجيب أو هل من مبارز؟ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء:٨٨). إنها كلمات تصنع كل ما يدور بخيالك من أسباب القوة والمَنَعة، من الإنسان إلى السلطان. ذلك أنها إذا تفجر نورُها ببصيرة العبد المتخلق بالقرآن، المتدبر لآيه العظيم، والمتحقق بحِكَمِه؛ جعل منه هو نفسه سلاحا يسحق ظلمات العصر ويكشفها كشفا، وبرهانا يدمغ باطل هذا الوابل الإعلامي الذي يهطل بالمصطلحات المغرضة، والمفاهيم المخربة للمخزون الوجداني والثقافي للأمة، بما يبني من الوجدان الفردي للإنسان ما لا طاقة لوسائل التدمير المادية والمعنوية معا -مهما أوتيت من قوة- على تغييره أو تفتيته. ثم هو -في الوقت نفسه- يبني النسيج الاجتماعي للأمة، ويقويه بما لا يدع فرصة لأي خطاب إعلامي مضاد أن ينال منه، ولو جاء بشر الخطاب وأشد الخراب، كلمةً وصورةً وحركة!

القرآن سر الكون ومعجزة القضاء والقدر

إنه القرآن، سر الكون ومعجزة القضاء والقدر، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر:٦٧). هذا الرب العظيم -لو أنت تعرفه- إنه يتكلم الآن، ويقول لك أنت،

نعم أنت بالذات؛ لو أنت تستقبل خطابه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥) فافتحْ صناديق الذخيرة الربانية بفتح قلبك للبلاغ القرآني وكن منهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾(الأحزاب:٣٩)، إذن تتحول أنت بنفسك إلى خَلْق آخر تماماً، وتكون من "أهل القرآن" أوَ تدري من هم؟ إنهم "أهلُ الوَعْدِ" وما أدراك ما "أهلُ الوَعْد"؟ إنهم بَارِقةٌ قَدَرِيةٌ مِن: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾(الإسراء:٥).. أولئك "أهل الله وخاصته"(رواه أحمد والنسائي وابن ماجه). وأولئك أصحاب ولايته العظمى، الذين ترجم لهم رسول الله ﷺ بقوله فيما يرويه عن الله ذي العظمة والجلال: "من عادى لي وليًا فقد آذَنْتُه بالحرب!" (رواه البخاري)، ذلك؛ وكفى.

وليس من مصدر لهم إلا كلمات الله.. هي المعمل، وهي الزاد، وهي قوت الحياة، وهي المنهاج، وهي البرنامج، وهي الخطة، وهي الإستراتيجيا. وما نستهلك دونها من الكلام إلا ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٢). وليس عبثا أن العرب لما سمعتها تتلى فزعت، فصاحت: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت:٢٦). إنه المنهج نفسه الذي يتعامل به المغرضون اليوم مع القرآن، وهو الأسلوب المخادع عينه الذي تستعمله كل وسائله الإعلامية، بما فيها تلك الأشد فتكا وضراوةً: الفضائيات المباشرة الكبرى! وإنه لخطأ كبير ذلك الذي يمارسه بعض المخلصين للإسلام، من بعض دعاته؛ عندما يفتون بتحريم صحون الاستقبال الفضائي، أو بطرد جهاز التلفزيون من البيت أو تكسيره! وما كانت محاربة الوسائل حلا ناجعا لدفع البلايا قط في التاريخ، وإنما كان أَولى بأولئك أن يدعوا إلى إدخال القرآن إلى البيت، وأن يجاهدوا لجعل تلك الصناديق مجالس قرآنية مفتوحة في كل بيت؛ إن البيت الذي يسكنه القرآن لا يدخله الشيطان أبدا!

إن كلمات القرآن عندما تؤخذ بحقها تصنع رجالا لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض. ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسمَّوا بـ"أهل الله وخاصته".

أعط الشعوب فرصة لاستماع القرآن

وكأنما يبدو -عندما أقرأ لبعضهم أو أستمع له، وهو يحرم جهاز التلفزيون، أو يحظر وسائل التلقي الأخرى من الفضائيات إلى الأنترنيت- أننا في حاجة إلى تجديد الثقة بالله أولا! عجبا! ومتى كان شيء أمضى من حد القرآن؟ نعم، فيا من تلعن الظلام في الظلام! إنما كان يكفيك أن تشعل زر النور فقط.. أَشْعِلْه من حرارة قلبك ووجدانك، ومن تباريح إيمانك! أَدْخِل القرآنَ إلى البيت بقوة تَرَ بنفسك غطرسة الإعلام -هذا الغول الذي أفزع العالم وثبط عزائمه- تتحطم بين يديك، كما تحطمتْ من قبلُ أوهامُ سحرة فرعون تحت عصا موسى، وتَرَ كيف أن نور القرآن يبتلع حبالهم وعصيهم، وتَرَ بعينك أنهم: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(طه:٦٩) أَدْخِلِ القرآنَ نصًا يُتلى، وآياتٍ تُتدارَس، وحركةً حيةً تملأ كيان الأسرة كلها، وتعمر وجدانَها، رجالا ونساءً وأطفالا، اِصْنَعْ ذلك تَرَ عجبا! تَرَ كيف أن الأطفال الصغار -من أسرة القرآن- يرفعون راية القرآن عاليةً، عاليةً في السماء.

وإن ذلك لعمري هو عين التحدي الذي جاء به هذا القرآن، لمن كان يؤمن حقا بالقرآن. وما يزال اليقين الذي يعرض به القرآن خطابه الغلاب يرفع التحدي منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم، بل إلى يوم القيامة. إنه يقول لك: أعطني -فقط- فرصة لأخاطب الناس.. أو بالأحرى: أعط الشعوب فرصة للاستماع لهذا القرآن؛ قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦). نعم، "ليسمع" فقط، ألا إن هذا لهو عين التحدي! ذلك أن كلماته كفيلة بإخراج الحياة متدفقة بقوة من ظلمات الموات. ذلك أنه أقوى حقيقة راسخة في هذا الكون كله، ذلك أنه القرآن كلام الله رب العالمين! وتلك حقيقة لها قصة أخرى.

فلا غَلَبَةَ إذن لمن واجهه القرآنُ المبين، لا غلبةَ له البتة، وإنما هو من المهزومين بكلمة الحق القاضية عليه بالخسران إلى يوم

القيامة، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٢). وقل لفتى الإيمان حامل راية القرآن: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٩٦-١٩٧). فكل أساطيل الظلمة، وما يمارسونه من غطرسة وتقلب في البلاد من أرض إلى أرض تشريدا وتقتيلا.. كله، كله يرتد مذموما مخذولا؛ لو -ويا حسرةً على "لو" هذه!- لو يرفع المسلمون راية القرآن، فيكون مصير النفقات والإعدادات الاقتصادية الضخمة التي يحشدونها؛ لإبادة الشعوب المسلمة المستضعفة، والتي تعد بملايين المليارات؛ إلى خسار محتوم. واقرأ هذه الآية الصريحة القاطعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال:٣٦).

لكن الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا الكتاب بقوة؟ تَلَقِّياً وإِلْقَاءً..! وهل حملنا معاً راية التحرير، تحرير ذواتنا نحن المسلمين من هذه الوثنية الجديدة، أو هذا الدِّين الوضعي الجديد: العولمة! بأصنامها الثلاثة: الأول صنم الإعلام الممجِّد للشيطان. والثاني: صنم التعليم العلماني، الذي يربي الأجيال على التمرد على الله، وينتج ثقافة الجسد، المقدِّسة للغرائز والشهوات البَهِيمِيَّة. والثالث: صنم الاقتصاد الاستهلاكي المتوحش، المدمر لكل شيء.

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا العهد معا من القرآن؟ على العمل بمفاهيم القرآن، ومقولات القرآن؟ أم أننا لا نزال مترددين؟ نرزح تحت تأثير السِّحر الإعلامي والدجَل السياسي، نؤله الأصنام الوهمية التي صنعتها لنا ثقافة الآخر وبرامجه التعليمية، وننبطح متذللين تحت أقدام إغراءات ثقافة الاستهلاك نلتهم كل ما يطعموننا من نجاسات.

مدرسة القرآن، لتحرير الإنسان

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! فهذا القرآن -عهد الله- يفتح أبواب مجالسه للمؤمنين، الذاكرين، المطمئنين، أهل السِّيمَاءِ النبوية، الرُّكَّع السُّجد، السالكين إلى الله عَبْرَ مسالك اليقين، متدرجين بالغدو والآصال، ما بين نداءات الصلوات ومجالس القرآن، مُرتِّلين للآيات، متدارسين ومتعلمين؛ حتى يأتيهم اليقين. تلك مدرسة القرآن؛ لتحرير الإنسان، وفكُّ إِسَاره العتيد من أغلال الأوثان، ومفاهيم الشيطان.

فيا فتية القرآن! ألم يأنِ لكم أن توحِّدوا القبلة؟.. فإنما كلمة القرآن عهدُ أمانكم، لم يزل نورُها يخرق الظلمات إلى يوم الدين: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨).

ثم ألقى الله -جلَّ ثناؤه- العهدَ إلى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(الشورى:٧) قرآنا يتدفق عمرانه الرباني على الأرض، فيملأ العالَم أمنا وسَلاما، ينطلق متدرجا مثل الفجر؛ من تلاوة الذاكرين الخشَّع إلى صلاة العابدين الركع.. ينطلق حركةً قرآنية شعارها: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت:٤٥). فمن ذا قدير على سماع خطاب الله ثم يخلد إلى الأرض، ويرضى أن يكون مع الْخَوَالِفِ، ويقعد مع القاعدين؟.. كيف وذاك عهد الله، عهد الأمان، فمن ذا يجرؤ على خرق أمانه؟

ويحك يا صاح!.. تلك الأيدي تمتد إلى يَد رسول الله ﷺ مستجيبة لتوثيق العهد، وهاتيك: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:١٠).. إنها مجالس الرضوان، تحت شجرة رسول الله ﷺ، تشرق أنوارها الخضراء على زمانك هذا عبر "مجالس القرآن"، مجالس الخير المفتوحة على وجدان كل مَنْ ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

فاستمع يا صاح!.. ذلك نداء الله يتنزل عليك! وتلك يد رسول الله تمتد إليك! ولكنَّ الزمن يَتَفَلَّت من بين يديك..! فإلى متى أنت لا تمدّ يدك؟!. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

الهوامش

(١) فانظر كم كان خطأ المعتزلة شنيعا لما زعموا أن القرآن -وهو كلام الله- مخلوق!

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٠٣/٤.



روح الأمّة

فتح الله گولن

فارسٌ كان هنا.. في ذلك السفح دفنوه،
نزعوا قَميصَهُ، والكفَنَ مزّقوه،
قالوا احْذَرُوا..! قد ينهض من جديد..!
فأثقلوا قبره بالصخور..
فارسٌ كان هنا.. في ذلك السفح دفنوه..

أيا فارسي! هلاّ حدثتني عمّا جرى..
أنت مَهمومٍ، والوطَنُ مغموم، فاجْلِسْ ولْنَبْكِ معا..
لنَبكِ ولْنَكوِ قلوبنا بالنّار..
أيا فارسي! هلاّ حدثتني عمّا جرى..

إليّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟
منذُ سنين وأنا أتسلّى بطَيفك دَوما،
أَعيش على أمَلِ أن تُقبِلَ يوما،
إليّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟

أَرتدي قميصًا من الخجل، ومن وَبَالِ السنينَا،
قلبي المتوهج بالأمل، ينتظرك،
إلى السماوات يعلو حيناً، ويحبو على الأرض حيناَ،
أرتدي قميصًا من الخجل، ومن وَبَالِ السنينَا..

كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!
تحطمت الجسور فلا عابرَ للسبيل..
جفت عيون الماء، وانقطع العبور، فليس لها سقاء!
كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!

إرادةٌ مُزَعْزَعَةٌ.. وأَنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!
عصابةُ الأشقياء سلبوا التاريخ حقائقه، نهبوه!
أخلاقنا، فيمنا تمشي على عَطبٍ،
قد انقلبتْ رأْساً على عَقِبٍ..
فما للمقدّسات من راعٍ ولا مجير،
إرادةٌ مُزَعْزَعَةٌ.. وأَنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!

فيَا فارسيَ انبعثْ! تماما كما في حديث الرؤى..
ثم أَقْدِمْ على صهوة الفَرَسِ الأبيضِ!
ذاتَ فَجْرٍ، عند بَدْءِ البُكور،
إنني أُغمضُ الآنَ عَيْني فتبصرك الروح،
أيا فارسي! فانبعثْ وتعالَ!
تماما كما في حديث الرؤى..!

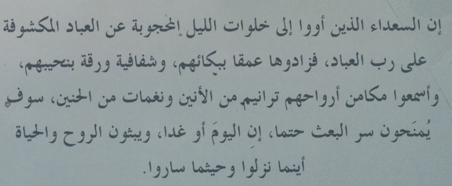
(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار



إن السعداء الذين أووا إلى خلوات الليل المحجوبة عن العباد المكشوفة على رب العباد، فزادوها عمقا ببكائهم، وشفافية ورقة بنحيبهم، وأسمعوا مكامن أرواحهم ترانيم من الأنين ونغمات من الحنين، سوف يُمنَحون سر البعث حتما، إنِ اليومَ أو غدا، ويبثون الروح والحياة أينما نزلوا وحيثما ساروا.

* * *



ISSN 1306-1879

9 771306 187009 15

www.hiramagazine.com